16 em Année No. 807

Lundi — 20 — 12 — 1948

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٨٠٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ صفر سنة ١٣٦٨ — ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٨ » السنة السادسة عشرة

فى سبيل سياسة إيجابية

للجامعة العربية

للاستاذ عمر حليق

من الأخطاء التى ارتكبها العالم المتمدن اعتقاده أن العلة الأساسية التى جملت تاريخ الإنسانية فى الخمسين سنة الأخيرة سلسلة من الحروب الداخلية والخارجية هى فســـاد المذاهب السياسية ، وأن الدواء الوحيد لها هو تغيير هذه المذاهب . ومن هنا تولدت الأنظمة النازية والفاشية والشيوعية والديمقراطية المعاصرة والاشتراكية ، ومن هنا كذلك تألفت عصبة الأمم المنحلة ، وهيئة الأمم القائمة .

هذا الاعتقاد خاطىء لأن التجارب المريرة التى مرت بها الانسانية فى ظل هذه النظم — نازية أو ديموقراطية أو شيوعية فى عصبة الأمم أو فى هيئة الأمم المتحدة — كلها لم تُشف الانسانية من علة الحروب ومن علة الشقاق الداخلى ومن علة التناطح فى العلاقات الدولية .

هذا الاعتقاد خاطىء لأنه يعالج النظم قبل أن يعالج الفرد الذى يتبنى هذه النظم ويتولى تنفيذها أو يعمل على تقييد نفسه بالتزاماتها . وهو خاطىء لأنه فى حماسته لتحقيق الأهداف ينسى أو يتجاهل خطورة السبل والوسائل .

فمصيبة النازية والشيوعية والديمقراطية الغربية ، ومصيبة عصبة الأمم وهيئة الأمم ليست فقط فى المبادىء والفلسفات التى بنيت عليها ، فكلها مبادىء تتوخى — نظريا على الأقل — إسعاد المجتمع الذى تعمل فيه وتوفر له الاستقرار والرخاء .

ولكن المصيبة فى الأفراد الذين تولوا ويتولون العمل لها ، ومصيبة الوسائل والسبل المتخذة لتحقيقها .

وجامعة الدول العربية هى واحدة من هذه المذاهب السياسية التى شعر سكان الشرق العربى بحاجتهم إليها فى هذه المنطقة الخطيرة من العالم ؛ وفى هذه الفترة الدقيقة التى تمر بها المجتمعات الصغيرة المتقاربة المتشابكة التى تنطق بالضاد .

وفى هذه الأزمة النفسانية العاصفة التى تجتاح العالم العربى ، وفى أعقاب هذه النكسات السياسية فى هيئة الأمم والعسكرية فى الميدان تتناول ألسنة الرأى العام الجامعة العربية بالنقد اللطيف حينا والعنيف أحيانا . وفى هذه الأزمة تتعرض المبادىء والفلسفة التى بنيت عليها الجامعة العربية لخطر جسيم . ولعل هـذا الخطر هو أو هى ما يواجه الشرق العربى فى تاريخه الحديث ، وفترة فاصلة فى مستقبله .

وفى هذه الأزمة النفسانية قد يقع العرب فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الكثيرون حين ألمت بهم أزمات مشابهة ، فهم فى بلبلتهم الفكرية والعاطفية يميلون لأن يجسموا موطنا واحدا من مواطن الضعف فى نظرة ضيقة ، بل هم أميل إلى البحث عن لون من الحياة جديد .

وتكرر المأساة من جديد وهكذا دواليك .

فليس من الغريب إذن أن يتخذ بعض الناس هذه النظرة نحو جامعة الدول العربية وفكرة الوحدة العربية إجمالا فأن هذه النزعة وليدة شعوبية متأصلة ، ولكنها فى أغلبها تخرج من أزمة نفسية .

ولهذا ، فان الأزمة التى تواجهها الجامعة خطيرة خطورة الفكرة التى تحملها . ولنقرر قبل كل شىء أن الفكرة والمبادىء التى بنيت عليها وتدعو إليها الجامعة العربية هى مبادىء سليمة . هذه أمور أساسية مستمدة من صميم الفكر السياسى والاقتصادى المعاصر ، ومن صميم المقدمات الثقافية (وهى تشمل السياسة والاقتصاد والعاطفة) التى يعيش عليها الناطقون بالضاد فى الشرق الأدنى .

هى مستمدة من صميم الفكر السياسى المعاصر لأنها دعوة إلى التآلف الأقليمي والتكتل السياسى ، على أساس المصلحة الحيوية المشتركة فى السياسة والاقتصاد والعصبية الثقافية وجميعها دعائم ضرورية للحياة الشريفة .

والجامعة العربية هى أول محاولة جدية للتعاون الأقليمى على أحدث ما أنتجته الفلسفة السياسية المعاصرة . والتعاون الأقليمى منصوص عليه فى ميثاق الأمم المتحدة ، ويحتل مكانة بارزة أشد البروز فى تكوين هيئة الأمم المتحدة الداخلى وفى نشاطها ونشاط فروعها والوكالات الخاصة الملحقة بها .

فمحاولة حلفاء الغرب توحيد أوروبا الغربية ومحاولة الروس فى شرق أوروبا ، ودول العالم الجديد فى مشروع الحلف الأمريكى مسبوقة بمحاولة الجامعة العربية للتكتل على دعائم أمتن وأبعد شأوا وأرفع فى مقاييس الخير والشر فى العلاقات الدولية .

ومع ذلك فان الجامعة العربية تواجه أزمة من طراز حاد ، والسبب فى ذلك لا يرجع إلى مبادئها وأهدافها ولكن إلى الأفراد والسبل التى تحمل الدعوة إلى هذه المبادىء ، وتعمل لتحقيقها .

وقد أصبح التنديد بالزعماء والقادة من قبيل الكلام المبتذل ، ولقد جسمته ألسنة الرأى العام العربى ، لجعلته السبب الوحيد فى هذه الأزمة التى يمر بها العرب اليوم ، ومن النادر أن نرى فى هذا التنديد دراسات منتقدة للسبل والوسائل وللنواحى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التى تتحداها هذه الأزمة .

وعلة الجامعة العربية هى فى افتقارها إلى إدارة رشيدة وخطط عملية ووسائل مرضية لتحقيق الهدف والفكرة التى تعمل لها فإنك لن تستطيع بلوغ هدف قبل أن تضع للوصول إليه خططاً وبرامج عملية وجهازاً إدارياً حازماً لتنفيذها .

والجامعة العربية فى حالتها الحاضرة تحتاج إليهما جميعاً .

ولقد اعتدنا فى الشرق العربى أن نتناول القادة من حيث (وطنيتهم) وما إلى ذلك من بقايا عهد النضال ضد الحكم الأجنبى . وقل أن نتناول القادة والزعماء من حيث مقدرتهم وصلاحيتهم ومؤهلاتهم العلمية واستعداداتهم النفسية . وكل توجيه سياسى لا يتوخى دراسة القادة على مثل هذا الضوء توجيه مشوه ضعيف .

والجزء الأكبر فى هذه القدمة الحادة التى جلبتها الجامعة العربية على نفسها والتى خلمتها ظروف وملابسات طارئة ، هى فقدان الكفاية والمؤهلات والاستعداد العلمى والنفسانى فى الجهاز الإدارى ومراكز التوجيه والمسئولية فيها .

فالجامعة لا تزال تنظر إلى نفسها ، ولا يزال الناس ينظرون إليها على أنها رمز للوحدة العربية ، بدل أن تنظر إلى نفسها كبرنامج للوحدة وكمشروع إنشائى .

والجامعة عربية « بدوية » من حيث أنها تتناول الأشياء فى نظرة شاملة على حين يتجه العالم نحو التحليل والتخصص . والجامعة فى نظرتها هذه لا تجارى النزعة « العلمية » التى أخذت تتمكن من العقلية العربية المثقفة .

فى هذه السنوات الثلاث التى مرت على الجامعة منذ تأسيسها أحرزت تقدماً سياسياً ملحوظاً وملموساً ، ولكنها قصرت تقصيراً مخجلا فى الاقتصاد والمواصلات الفكرية والتعاون الثقافى والاجتماعى ، وذلك لأن المشرفين عليها يبدو أنهم لا يقدرون قيمة هذه النواحى فى التعاون الإقليمى الصحيح ، والسياسة ليست وسيلة للتعاون الاقتصادى والفكرى ولكنها نتيجة لها.

هذه الأصوات الناشزة التى تصدر هنا وهناك وهذا الركود السياسى البادى فى المملكة السعودية واليمن هى وليدة قصور الوسائل فى الجهاز الإدارى للجامعة العربية .

وهذا القصور لا يرجع إلى الصخور الشماء التى تقف فى سبيل برامج الدوائر الثقافية والاقتصادية فى الجامعة . ولكنه يرجع إلى فقدان هذه البرامج .

لقد عجزت مثلا الإدارة الاقتصادية فى الجامعة عن أن تضع

لما أصبحا رفيعاً فى هذه الثورة الصناعية التى تجتاج نجداً والكويت وتكاد تفصل شرق العالم العربى عن غربيه وأواسطه ، اقتصادياً واجتماعياً . فلاغرابة إذن أن سياسة البترول (وهى سلاح خطير فى العلاقات الدولية) فى الجامعة العربية مقيدة باعتبارات سياسية محلية .

إن طائفة من الدراسات وسلسلة من المؤتمرات وتقرات الخبراء تفيد الجامعة فى هذه الثورة الصناعية الخطيرة فى طهران والبحرين والكويت فوائد جسيمة للتعاون السياسى والاقتصادى ولمستقبل الوحدة العربية إجمالا .

فهو أولا : محاولة لتعريب آبار الزيت تدريجياً فتوفر العمل والانتفاع المادى والمهنى لألوف السعوديين والسوريين والمصريين وغيرهم من العرب فى هذه المنشآت التى يعتص بها الأمريكان ذهب الصحراء ، ولربط قلب الجزيرة بالهلال الخصيب ووادى الكنانة من طريق استيطان هؤلاء العمال . وأى خطر على المستقبل الاجتماعى والثقافى — ولا نقول السياسى — للوحدة العربية وللتعاون الإقليمى جاثم فى هذه الألوف من العمال الأمريكان والطليان وغيرهم الذين أنشأوا فى قلب نجد والكويت قطعة من أمريكا ومستعمرات إيطالية و « جوالى » أجنبية الثقافة والولاء لا تبدو خطورتها إلا حيث ترسخ جذورها هنا وهناك كما رسخت فى الاسكندرية وفلسطين .

وهى ثانياً : تحيط البيت السعودى بمجموعة عربية مستنيرة تعرف مايفعله الاستغلاليون الأمريكان فى ذهب الصحراء وترقبهم فى ذكاء العالم الخبير بدل أن تترك البترول والبيت السعودى المالك والمجتمع السعودى إجمالا والتعاون الاقتصادى العربى فريسة فى يد الاستغلاليين العالميين ومعهم حفنة من المرتزقة العرب الذين ضربوا نطاقاً حديدياً على البلاد السعودية وأثار هذه العزلة الاقتصادية فى البلاد السعودية علاوة على أضرارها السياسية الوخيمة (كما تشهد قضية فلسطين) كونها نقطة أمريكية استراتيجية فإن لها خسائر اقتصادية جسيمة على باقى أقطار العالم العربى ؛ هذه الخسائر لا يقدرها إلا الذين أتيح لهم الاطلاع على ضخامة التبادل التجارى الذى تمتص به عشرات الشركات التجارية فى نيويورك الدخل القوى للملكة السعودية فى جميع أوجه التبادل التجارى وبعملة صعبة كالدولار الأمريكى الذى يحتاج إليه الاقتصاد العربى فى سوريا ومصر والعراق ولبنان وفلسطين حاجة ماسة. والقصور فى هذا التعاون الاقتصادى ملموس فى أكثر من ناحية ، وليست سبب موانع سياسية فقط . ولكنه فى أساسه قصور فى التعريف بفوائده ودراسة افوائده المادية والعملية دراسة علمية وتعميمها بنباهة وعلى نطاق واسع . هو قصور فى الوسائل والسبل . والواقع أن الجامعة العربية قد أهملت استعمال أمضى الأسلحة لتدعيم كيانها والأهداف التى تدعو إليها ، وهى دعائم الرخاء والاستقرار فى هذا الجزء الهام فى العالم .

هذه الذئاب التى تجثم على أطراف الشرق العربى لتنهش منه وتعيش على خيراته ما الذى يدفعها إلى ذلك ؟ ما سر تنافس الروس والأمريكان والبريطانيين على هذا الشرق ؟ وهذه الثعالب الراقدة بين ظهرانينا تستثمر الملايين فى الشركات «المصرية» وفى مشاريع اليهود فى فلسطين ، أليست وليدة المعرفة بالإمكانيات المغرية الكامنة فى الشرق العربى ؟ كم يعلم المواطن العربى عن هذه الإمكانيات ؟ لمحات خاطفة فى الصحف السيارة لا تشفى الغليل ولا توقظ فى النفس وعياً اقتصاديا صحيحاً . الفائدة التى تجنيها الجامعة العربية والفكرة التى تعمل لها عظيمة لو أن الدوائر المختصة فى الجامعة جمعت أو كلفت من يدرس هذه الإمكانيات فى إسهاب ودقة لتعممها على أوسع نطاق ؛ ولم تترك ألسنة الرأى العام العربى والمثقفين العرب فى معلوماتهم عن الوضع الاقتصادى فى الأقطار العربية فريسة المعلومات المشوهة المغرضة التى تصدرها المصادر اليهودية والشركات الأجنبية فى عشرات البحوث والنشرات . ولماذا يكون المواطن العربى أجهل الناس بوضع بلاده وخطورتها فى الاقتصاد الدولى ؟ قد لا تلام الجامعة العربية وحدها على هذا التقصير . فالخبرة الفنية متوفرة فى معاهد العلم والدوائر الحكومية والحكومات والأوساط العلمية العربية والمثقفون الخبيرون يشاركون الجامعة وزر هذا الإهمال الضار .

وخذ مهزلة التعاون الثقافى . كأن الثقافة صرف ونحو وترجمة . ليس للجامعة العربية نشرة واحدة محترمة تحمل رمز هذا التعاون ورسم المناهج له ، وليس لها وسيلة واحدة فى وسائل المواصلات الفكرية لتنقل إلى بيروت وبغداد أنباء البحث ونجد والكويت ، والصحف العربية لا تزال فريسة الدعاية الأجنبية الخبيثة عن طرق وكالات الأنباء الأجنبية حتى فيما يتعلق بالشؤون العربية الصرفة . وكم من بلبلة أوجدتها هذه الوكالات فى الحياة العربية الداخلية بوسائلها الخبيثة . وشكراً لمصر التى تكاد تحتكر الإنتاج الفكرى والصحفى فتؤلف نوعا مشوها من الوحدة فى الاتجاهات

أول أبطال الحروب الصليبية :

عماد الدين زنكي

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

لم يكن الصليبيون يستطيعون أن يجدوا وقتاً أنسب من هذا الوقت الذى اختاروه للانقضاض فيه على بلاد الشام ؛ فقد كان النظام الإقطاعى يومئذ يمزق وحدة هذه البلاد ، ويوهن من قواها ؛ فلم يستطع أمراء الإقطاعات المتفرقون أن يصدوا هذا الجيش اللجب الذى بعثت به أوربا لالتهام تلك القطعة من الأرض ، فسقطت فلسطين وجزء من سوريا بين أيديهم ، وأسسوا بها إمارات صليبية هى إمارة الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ؛ وبرغم ما بذله أمراء البلاد مجتمعين حيناً ، ومتفرقين حيناً ، من الجهود فى حرب الصليبيين لم يستطيعوا استخلاص البلاد من أيديهم ، أو صد عدوانهم ؛ ورأينا الفرنج وقد امتدت حدودهم من ماردين وأنطاكية فى الشمال إلى مدينة العريش لدى حدود مصر . وأخذت جيوشهم تضخم وقسوتهم على من بجوارهم من العرب تشتد ، ونهبهم ما يطيقون نهبه يزيد فى كل يوم ، وأصبحوا يرتكبون كل عظيمة لا يهابون قصاصاً ولا عقوبة ، واحتملت البلاد المجاورة لهم كل ما لا يستطاع حمله من الذل والإرهاق ، ففرضت عليها الضرائب الثقيلة لا تميز فى ذلك بين مسلم ومسيحى .

تلك كانت حال البلاد عند ما ولى عماد الدين زنكى إمارة الموصل . وقد لوحظ فى اختياره لهذه الإمارة ما عرف عنه من الكياسة وحسن الإدارة ، والشجاعة فى حرب الصليبيين ؛ فرأى الأمير الجديد أنه لا يستطيع النهوض بهذا العبء ، وشمل الأمة ممزق ، ووحدتها مبعثرة ، فوضع نصب عينيه أن يوحد البلاد تحت قيادته ، ويجمع أمرها فى يديه ، حتى يحمل على عدوه حملة رجل واحد ، ويستخلص من بين براثنه الوطن المغتصب ؛ فضم إلى إمارته معظم بلاد الجزيرة ، ثم عبر الفرات واستولى على حلب وكثير من بلاد الشام ، وحاول الاستيلاء على دمشق حتى تتم له وحدة البلاد ولكنه لم يوفق .

ورأى عماد الدين أن إمارته — وقد اتسعت رقعتها — فى حاجة ماسة إلى الإصلاح الشامل ؛ فنصب نفسه أباً لشعبه وسهر على إصلاح شئونه المالية ، حتى يستند إلى دعامة قوية من المال فيما صمم عليه ، وكانت البلاد قد خربت قبله ، لطول غارات الصليبيين عليها ، وصار كثير منها غير مزروع ، وانقطعت التجارة لتعرضها لنهب الفرنج ، فبذل زنكى جهوداً جبارة فى إحياء الزراعة ، وإعادة الرخاء إلى إمارته ؛ فرجع الفلاحون إلى أرضهم ، وبنيت المدن المخربة ، وعاد إلى التجارة الحياة ، كما أخذ العابثين بالنظام ، وقطاع الطرق بالشدة والقسوة ، وحكم إمارته بعين يقظى تنقل إليه عيونه كل ما يجرى فيها وفيما حوله من البلاد ، حتى لا يؤخذ على غرة . ونهض بالبلاد نهضة ثقافية ، فكان هو ووزيره جمال الدين الجواد من حماة رجال العلم والثقافة . وأحاط نفسه بنخبة ممتازة من الرجال أغدق عليهم خيره ، ولم يكن من صفاته التلون والتغير على أصحابه ، فكانوا لذلك يخلصون له فى النصح ، ويبذلون نفوسهم فى سبيله ، وبهذا كله استطاع أن يجمع قوى هذه الإمارة ويوجهها إلى الصليبيين يحطم بها ما استطاع من قوتهم

كان الفرنج ينظرون إلى هذه الإمارة الناشئة بعين الريبة ، فما هو إلا أن صمم عماد الدين على لقائهم عند حصن الأثارب

الفكرية والعاطفية ، مشوهاً لأنه يفقد عناصر التوجيه القوى المنظم الذى يجب أن يقع عبئه على الدوائر المختصة فى الجامعة العربية . وفى نشاط جامعة الحلف الأمريكى (الولايات المتحدة وجاراتها اللاتينية الجنوبية) فى هذا المضمار دروس وخبرة تصلح للاقتباس والقدوة المفيدة . وبعد ، فهذه وغيرها من أوجه العجز لا تنفى مطلقا متانة المبادىء التى تدفع العرب إلى الوحدة والتعاون الإقليمى إلى أبعد حدود التعاون . ولكنها ألوان فى القصور مرجعها فقدان الاستعداد لدى القائمين على شئون هذه المنظمة الإقليمية التى تحتل اليوم على الرغم من كل ذلك مكانة خطيرة فى الأوساط الدولية . والذين أتيح لهم الاتصال عن كثب بهيئة الأمم والوكالات الفنية العالمية يقدرون هذه الخطورة حق التقدير . هو قصور فى الاستعداد وضعف فى الوسائل والسبل لتحقيق هذا التعاون .

وإذا كان التحدى سبيل إلى الرقي والتقدم ، فإن هذا القصور — الذى هو جزء من الأزمة التى تواجه الجامعة ومعها العرب فى مختلف أقطارهم — هو نوع من التحدى . والأزمات فى جملتها أنواع من التحدى . وتاريخ التمدن كما قال المؤرخ توينبى Toynbes تحد وإجابة .

نيويورك عمر حليق

سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وهو حصن قريب من حلب ، اشتد ضرره على أهلها ، فلا يكاد يمر يوم من غير غارة عليهم ، أو نهب لأموالهم . حتى جمع الفرنج فارسهم وراجلهم يريدون أن يسددوا إلى تلك الإمارة ضربة قاضية ، لا تقوم لها بعدها قائمة . ولعل الخوف من هذا الحشد الذى جمعوه قد داخل نفس بعض أصحاب العماد ؛ فأشاروا عليه بالعودة ، ولكن الحماسة المتدفقة فى صدره ملأت نفوس جنده همة وإقداماً ، فأقبلوا على أعدائهم فى إيمان وبسالة يريدون أن يظفروا بالشهادة فى سبيل الله . ولقد صبر الفريقان وأبلوا فى المعركة أشد البلاء ، ثم ظفر المسلمون بأعدائهم وانتصروا عليهم ، وانهزم الفرنج هزيمة منكرة . قتل منهم عدد ضخم ، ووقع الكثير من فرسانهم فى الأسر وأذاقهم المسلمون من بأسهم ما أدخل فى نفوس عدوهم الرهب والوهن ، فلم يستطع الفرنج لقاء عماد الدين عند ما مضى مجداً بجنده إلى قلعة حارم بالقرب من أنطاكية ، وبذلوا له نصف دخل المدينة على أن يعقد بينه وبينهم هدنة ، فأجابهم إلى ذلك ، حتى يعطى جيشه الناشئ فرصة للراحة والاستعداد ، وعاد بعد أن رأى الفرنج أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم فى حساب وصار قصارى همهم أن يحفظوا ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا فى ملك جميع البلاد .

رأى الفرنج هذا الخطر فأرادوا تحطيمه ، ومضى ملك بيت المقدس إلى أعمال حلب يهاجمها ، وجاءت طائفة من فرنج الرها تغير عليها ، فاستقبلهم عامل حلب وهزم الأولين ، وأباد الآخرين . وأراد عماد الدين أن يثأر من عدوه ، فانقض بجنده على اللاذقية وأثخن فى الفرنج قتلا ، وأسر منهم سبعة آلاف أسير ، وكانت الغنائم أكثر من أن تحصر ، وأخذت الروح المعنوية تقوى عند المسلمين ، بينما دب الوهن والخوف إلى نفس أعدائهم ، فلم يثأروا لأنفسهم ، ومضى زنكى يكيل لهم الضربات المتلاحقة ، ويأخذ منهم القلاع والحصون ، ويسترد المدن والقرى ، ويمنح أهلها الأمان والسلام حتى ضج الفرنج ، وأرسلوا إلى ملك القسطنطينية يستصرخون به ، ويحرضونه على أن يصل لينقذ البلاد قبل أن تملك ، فأقبل على عجل ، ثم مضى إلى حلب يريد أن يستولى عليها فلم يجد فيها مطمعاً ، فذهب إلى قلعة شيزر ، ولم تكن خاضعة لزنكى ، يريد أن يجعلها قاعدة يشن منها هجومه . ولعل ملك الروم ظنها سهلة المنال ، وأن العدو اللدود زنكى لا يعنى بأمرها فحاصرها ، ونصب عليها سبعة عشر منجنيقاً ، ولكن صاحبها أرسل يستنجد بعماد الدين فجاء إليه مسرعاً بجيشه ؛ غير أن ملك الروم كان قد جمع من الجند عدداً ضخماً ؛ فرأى العماد أن يستخدم الحيلة فى هزيمته ؛ فكان يسير كل يوم إلى شيزر هو وجنده ، ويقفون بحيث يراهم الروم ، ويرسل سرايا تأخذ من ظفرت به منهم ، ثم إنه أرسل إلى ملك الروم يقول له : إنكم قد تحصنتم منى بهذه الجبال فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقى ، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم ، وإن ظفرتم بى استرحتم ، وأخذتم شيزر وغيرها . فأشار فرنج الشام على ملك الروم بلقائه ، فلم يفعل ، وقال : أتظنون أن ليس له من الجند إلا ما ترون؟ إنما هو يريد أن تلقوه فيجيئه من نجدات المسلمين مالا حد له . وكان زنكى يرسل إلى ملك الروم يوهمه أن قلوب الفرنج متغيرة عليه وأنهم سينفضون من حوله إن هو أقبل على الحرب ، ويرسل إلى الفرنج يخوفهم من ملك الروم ، ويقول لهم : إن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً . نخاف كل من صاحبه ، ورحل ملك الروم عن شيزر وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها ؛ فتبع زنكى جند عدوه وظفر بالكثير منهم ، ووقع فى يده جميع ما تركه الفرنج غنيمة باردة ، وقد بهر هذا النجاح شعب عماد الدين وخلده الشعراء فى قصائدهم .

وكان أعظم ما قام به عماد الدين ، أنه حطم إمارة كاملة من إمارات الصليبيين ، تلك إمارة الرها ، ففى جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة سقطت المدينة فى يده بعد أن حاصرها حصاراً عنيفاً . وقد فكر فى أن ينزل عقوبة مخيفة بالصليبيين انتقاماً لما اقترفوه من مذابح عندما دخلوا بيت المقدس وأنطاكية وغيرهما ، ولكن إنسانيته غلبت غضبه ، فلم يقتل عدا المحاربين أحداً ، ولم يأسر رجلا ولا امرأة ولا طفلا . ولم يستول على ممتلكات أحد ، وأمر جنده بإعادة ما أخذوه فعاد البلد آمناً عامراً

كان لسقوط الرها دوى عظيم فى جميع الأرجاء . وكان فتحاً عظيماً ملأ قلوب المسلمين غبطة وبهجة ، وأقبل الشعراء يهنئون عماد الدين بهذا الفتح وأكثروا وأطالوا ؛ فمن ذلك ما قاله ابن منير :

صفات مجدك لفظ جل معناه ... فلا استرد الذى أعطاكه الله
يا صارماً بيمين الله قائمه ... وفى أعالى أعادى الله حداه
أصبحت دون ملوك الأرض منفرداً
بلا شبيه ، إذ الأملاك أشباه
فداك من حاولت مسماك همته ... جهلا وقصر عن مسماك مسماه
أين الخلائف عن فتح أتيح له ... مظلل أفق الدنيا جناحاه
فتح أعاد على الإسلام بهجته ... فافتر مبسمه واهتز عطفاه

أبقاك للدين والدنيا تحوطهما من لم يتوجك هذا التاج الإلهو

ترك عماد الدين زنكي حامية قوية في الرها ، وأخذ يتابع انتصاراته على الصليبيين ويستخلص من أيديهم ما بقي من إمارة الرها ، وبينا هو يحاصر إحدى القلاع اغتاله وهو نائم أحد مماليكه بإغراء أعدائه وذلك في ربيع سنة إحدى وأربعين وخمسمائة

كان زنكي إلى جانب شجاعته وبسالته سياسياً ماهراً ، يهادن عدوه ، ويلين إذا رأى ذلك ضرورة أو كان محتاجاً إلى وقت يجمع فيه شمله ، وبعد عدته فإذا رأى الفرصة مواتية انقض لا يلوى على شيء ، ويفرق بين خصومه بالحيلة والمكر حتى يأخذ كلا على حدة ، وساعده على النجاح في حروبه ما بثه من العيون في بلاد عدوه تأتيه بالأخبار وتنقل إليه حقيقة الحال .

مات عماد الدين وألقى عبء إكمال جهاده على عاتق ولده نور الدين ، وأرجو أن أوفق في كلمة أخرى إلى بيان المدى الذي بلغه الابن العظيم في تحقيق آمال والده البطل الكبير .

أحمد أحمد بدوي

مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

علم النفس والقضاء الجنائي

للاستاذ حسين الظريفي

ما من أحد يحضر مجلس القضاء إلا تملكه الشعور بالحرمة والكرامة اللتين تغمران جو المكان . لا فرق في ذلك بين من كان من المتقاضين أو السامعين والقاضي نفسه ، وهو على منصة القضاء ، ليمازجه نفس الشعور الذي يشعر به سواه ويدخل مع الداخلين في ذلك الجو الخاص الذي تفرضه طبيعة القضاء على كل من حضر مجلسه . فالجميع سواء في تلقي المعنى الخالد الذي يوحي به حكم القانون فيما يعمل العاملون .

إن هذه الحرمة التي كانت وما تزال ، وستبقى إلى الأبد ، وهي أقوى شعور يمتلك أنفس الناس وهم وقوف أمام عدل القانون — قد صاغت الكلمة القديمة التي تقول بأن روح القضاة من مصدر إلهي ، وجعلت قضاة القرون القديمة يعتقدون في أنفسهم القدرة على استجلاء غوامض الأشياء ، مهما تعقدت العقد ، وامتد بها الأمد ، ولم يقو عليها من أحد . ولكننا نجد اليوم أن تلك الكلمة القديمة قد أصبحت كلمة جوفاء لا تدل إلا على معنى تاريخي ولا ترمز إلا إلى ذلك الشعور الذي كان يمتلك الإنسان في زمن كان . فعصمة القضاء من الأخطاء لم تعد مما يدعيها أحد على أحد . والقضاة أنفسهم لا يدعونها على الناس ولا يرتضون أن ينسبها لهم الناس . وهم في أعماق نفوسهم يشعرون بثقل أمانة العدل المودع إليهم توزيعه على المتقاضين ، ويحققون ويدققون فيما يحكمون ، لعلمهم أنهم مثل غيرهم عرضة للخطأ ، وأنهم قد يضلون السبيل ، ويفقدون الدليل ، وينوءون بالعبء الثقيل .

والقوانين الأصولية تفصح في إجراءاتها عن مدى حفظ حقوق المتقاضين من أخطاء القضاة ، فالحكم لا يصدر إلا وله معقب ممن صدر عليه ، ومحكمة أعلى يلوذ بها ذلك المعقب لتفادي أخذه بما لم تقدمه يداه . ثم إن الحكم يعلن في جلسة علنية وعلى ملأ من الناس ، ومن حق كل سامع له أن يستعرضه ويعرضه وأن يبدي الرأي فيه ، وتلك تعليقات الفقهاء على أحكام القضاء دلائل موائل على مدى ما يمكن أن يخطأ فيه القضاة .

والقاضي الجنائي ، كالقاضي المدني ، قد يخطئ في فهم النص وفي تطبيقه على الوقعة ، ولكنه ينفرد عن القاضي المدني بما قد يقع فيه من الخطأ في معرفة الجاني ، وفي تعيين مدى أخذه بجريرته ونوع وشدة العقاب الواجب فرضه عليه ، فتلك ميادين فسيحة لا يجري فيها القاضي المدني ، ويلزم بالجري فيها القاضي الجنائي ليتخطى الخطأ ويصيب الصواب فيما يقضي به على الأظناء .

ومما لا ريب فيه أن الشهادات المدلى بها أمام القضاة وسائر البينات المعروضة عليه ، لا تكفي وحدها دليل نفي أو إثبات ، فهناك الشخصية التي تدور عليها هذه البينات ، وهي شخصية المتهم ، ولا بد من إيضاح الخطوط الدقيقة التي تتجاذب أو تتنافر عندها تلك الأدلة مع شخصية المتهم لتقوم حجة له أو عليه ، وهذا ما يضطلع به علم النفس وما تسديه يداه . ثم هناك ماهية الجريمة ، فإنها هي الأخرى لا تقدر حق قدرها إلا بعد إيجاد نقط اتصالها بشخصية المجرم ، وذلك ما يعنى به علم النفس أيضاً ويقوى عليه . بل إن الأدلة نفسها لا بد من النظر إليهـــا على ضوء هذا العلم قبل الأخذ بها أو طرحها ، حتى إذا ثبتت إدانة المتهم وعد مجرماً وأريد فرض العقاب عليه ، برزت أمام القاضي الجنائي مسألة خطيرة هي تعيين درجة مسئوليته عن جريمته ، وهنا تنفتح أمام القاضي الجنائي أبواب علم النفس الحديث لتفتح مغالق هذه المسؤولية في الأعماق البعيدة من نفسية المجرم .

والواقع من الأمر أن المجرم يحمل في جوانحه نفسية شاذة

معقدة قد ترسبت فيها أعقاب وراثة طويلة ، واستقرت عندها تربية منزلية واجتماعية عليلة وبيلة ، وبتفاعل هذه بتلك وتلك بهذه ، نشأت عنده الميول الإجرامية ، ثم أتيحت لها فرصة العمل بشكل اعتداء على المجتمع .

إن العمل مهما كان شكله وموضوعه لا بد أن يكون ناشئاً عن حافز داخلي ، ولابد لتقدير هذا العمل وإعطائه القيمة الحقيقية له ، وتعيين درجة مسؤولية صاحبه عنه ، من إزالة الستار عن ذلك الحافز الذي يكمن وراءه . والمجرم مهما كان مالكا لروعه وهدوئه عند مقارفته الجريمة ، لا بد أن يكون خاضعاً لتأثير خفي في نفسه ، فهو رجل شقي غير سوي ، ومقدار شقائه يجب أن يقدر بمقدار ما له من حرية إرادة تجاه ذلك العامل غير الشعوري الذي يمكن أن ندعوه بعامل الجريمة .

إن تحقيق العدالة في تطبيق الإجراءات الجنائية على الوقائع والجناة بحيث تؤدي إلى معرفتهم لا تكفي وحدها دون أن تنضم إليها العدالة في تطبيق قانون العقوبات على الجناة ، بحيث تفرض على كل جان العقوبة المؤثرة فيه ، فتنزل عنده منزلة الدواء وتمنحه الشفاء من علة ما فيه من الميل إلى الإجرام .

وقد يقع الفعل الذي يمنعه القانون ويعاقب عليه دون أن يؤاخذ عليه الفاعل ، وذلك فيما إذا كان في حالة يعفى فيها من العقاب ، تلك حالة تستوجب حسن تطبيق القانون ، ولا سبيل إلى حق هذا التطبيق إلا عن طريق دراسة نفسية الفاعل مضافة إلى دراسة طبيعة الظرف الذي وقع فيه الفعل .

ذلك بعض ما أمكنت الإشارة إليه في هذه الكلمة القصيرة ، وهي تفصح عن المدى الذي يصل إليه ويتغلغل فيه علم النفس من مباحث المجرم والجريمة في القوانين الإجرائية الجنائية والعقابية .

ولاختلاف هذه المباحث في موضوعاتها وتشعب أصولها وفروعها ذهب علماء الفقه الجنائي لا إلى إحداث علم نفس خاص يعنى بموضوع المجرم والجريمة ، ويستقل بمباحثه عن علم النفس العام ، ولكن بتقسيم هذه المباحث إلى موضوعات ، وإفراد كل موضوع منها بعلم نفس خاص له أسلوبه وأغراضه ودوره الذي يؤديه في ساحة القضاء .

وهكذا وجد علم النفس القضائي ، وهو العلم الذي يحلل فيه القاضي الجنائي نفسيات جميع أفراد الدعوى العامة من شاك يمثل الهيئة الاجتماعية في شخصية النيابة العمومية ، ومن متهم ، ومجنى عليه ، وشهود إثبات ، وشهود دفاع وخبراء ووكلاء ، ثم هو قبل ذلك وبعد ذلك يحلل نفسيته تجاه أدلة الدعوى وتجاه أفرادها ليأمن شر ما يكمن وراء شعوره من منازع ودوافع الانحياز إلى جهة التجريم أو البراءة ، فيحتفظ بحياده القضائي في كل مرحلة من مراحل الدعوى وفي كل إجراء من إجراءاتها ولا يغفل عما يفعل .

تلك هي نظرة القاضي إلى نفسه ، وأما نظرته إلى أفراد الدعوى الآخرين ، فإنها توقفه على حالة المتهم الماثل أمامه أبرئ هو أم مسئ ، وهل يصدق هذا الشاهد أو ذاك في شهادته هذه أو تلك ، أم هو يكذب فيها عن عمد أو عن غير عمد ؟ وهل هناك مؤثرات شعورية أو غير شعورية لامست ولابست الخبراء والوكلاء فتأثروا بها عن شعور أو عن غير شعور فأعرضوا عنها أو استجابوا لها ، ومدى تأثير ذلك في أقوالهم وأعمالهم في جميع درجات التحقيق والمحاكمة ؟

ووُجد علم النفس الجنائي ، وهو العلم الذي يفسر الجريمة بالتفسير العلمي ، ويحلل نفسية المجرم ، ويمد يده إلى جذور الإجرام فيه .

ووجد علم النفس القانوني ، وهو العلم الذي يضمن للقاضي حسن تطبيق نصوص القانون المقابية على الوقائع الجرمية من حيث تعيين درجة المسؤولية التي يمكن إلقاؤها على عاتق الجاني

وهكذا نجد علم النفس القضائي يسير في ركاب القاضي الجنائي من أول مراحل الدعوى إلى آخرها فيحفظه من مغبة الحكم على البرئ والإفراج عن المسئ ، ويبين من هو الفاعل .

ونجد علم النفس الجنائي يظهر في قاعة المحاكمة عند ما ينتهي علم النفس القضائي من تعيين الفاعل فيقوم فيه بدور التحليل ورد الجريمة إلى أصولها وبواعثها لتعيين كونه مجرماً أو غير مجرم ، ثم يأتي الدور لعلم النفس القانوني ، وهو دور غير حتمي ، وفيه يضع القاضي مواد القانون في الموضع الذي أراده الشارع بالقياس إلى تعيين موقف الفاعل من الظروف المبيحة لارتكاب الفعل أو المعفية من العقاب ، ويقرر كون الفاعل مسؤولا أو غير مسؤول

تلك هي العلوم النفسية الثلاثة التي لا غنى عنها لكل قاض جنائي يهمه الاضطلاع بأعباء الدعوى العامة على الوجه الذي يحقق العدل ويريح الضمير ويزيد من ثقة الناس بالقضاء .

(بغداد) حسين الظريفي المحامي

القبـــائل والقراءات

للأستاذ عبد الستار أحمد فراج

— ٤ —

يرجع السر فى أن قبيلة تميم نالت قسطا كبيراً من عناية الرواة وغلبة ذكرهم لها ومعرفة الكثير مما انفردت به إلى أنها كما قدمت فى مقال سابق كانت تسكن جانب نجد المجاور للعراق .

ومعلوم لنا أن التنافس العلمى والسبق فيه كان ميدانه البصرة والكوفة الواجهتين لصحراء العراق حيث يخرج منهما — وعلى الأخص البصرة — العلماء والمتأدبون إلى البادية ليأخذوا اللغة من أفواه أربابها الذين لم تفسدهم العجمة . وكان إليهما يقصد الراغبون فى رواية الشعر ومأثور القول وضبط اللغة وغريبها على أعلام شيوخهما كأبى عمرو وأبى عبيدة ، والأصمعى وأبى زيد ، وخلف وحماد ، والمفضل الضبى وابن الأعرابى ، وغير هـؤلاء وأولئك ممن كانت لهم فى العربية وعلومها قدم راسخة فلا عجب أن كانت تميم — وبطونها كثيرة — هى أول ما يروى لها ويؤخذ عنها . يضاف إلى هذا ما قدمته فى المقال الأول من أن البصرة والكوفة قد شملتا فى مبدأ إنشائهما عددا كثيرا من تميم ، وهذه من تكملة ما خالفت فيه غيرها وبخاصة الحجازيين :

١ — « عسى » من أفعال المقاربة تستعمل تامة بمعنى أن ما وليها يعرب فاعلا لها وذلك إذا ما جاء بعدها « أن والفعل » كقول الله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » .

وتستعمل ناقصة بمعنى أن يكون لها اسم وخبر مشبهة « كان » فى العمل وذلك إذا ما جاء بعدها اسم ظاهر أو اتصل بها الضمير فيعرب اسماً لها ، وبعده « أن والفعل » فيعرب خبراً لها كقول الله تعالى « عسى الله أن يأتى بالفتح » . إلا أن أهل الحجاز لا يلحقون بعسى الضمائر ولا التأنيث . يقولون : هند عسى أن تقوم والمحمدان عسى أن يقوما ، والمحمدون عسى أن يقوموا ... ، لذلك تعتبر عندهم فى مثل هـذا التركيب مكتفية بفاعلها غير محتاجة لخبر . أما التميميون فيلحقون بها التأنيث والضمائر يقولون : هند عست أن تقوم والمحمدان عسيا ... والمحمدون عسوا ... ، فتكون فى مثل تركيبهم هذا ناقصة . وإذن فتميم تستعملها كـكان الناقصة دائما ، وأهل الحجاز لا يجعلونها كذلك إلا فى حالة ما إذا تلاها اسم ظاهر وبعده « أن والفعل » .

والقرآن الكريم فى أغلب قراءاته لم تقع فيه الضمائر مع عسى إلا فى موضعين « قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا » و « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض » وقرأ عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن » بالإضمار فيهما على لغة تميم « عسوا أن يكونوا ... عسين أن يكن ... » .

ثم إن عسى فيها لغتان : (ا) أن تكون على وزن سعى ، (ب) أن تكون على وزن لقى . غير أن الثانى منهما هجر استعماله على إطلاقه واقتصر فيه على اتصاله بتاء الفاعل أو نون النسوة أو « نا » ، ومن العجب أن أبا حيان فى البحر نقل عن أبى بكر الأذفوى[١] وغيره قولهم : إن هذا الكسر لغة الحجازيين . وقد رأينا أن ذلك لا يكون إلا حين الاتصال بالضمائر السابقة وأن الحجازيين لا يلحقونها فاذا صح ما نقله أبو حيان عن الأذفوى يكون إلحاقهم الضمائر بعسى منتقلا إليهم من تميم إذ الأصل فى الاستعمال ما قدمته نقلا عن تفسير أبى حيان نفسه وعن الأشمونى وليس استعمال قبيلة للغة قبيلة أخرى بالأمر البعيد وعلى الأخص الحجازيين الذين خالطوا كل القبائل واقتبسوا من لغاتهم ما راق لهم . ومواسم الحج وأسواق العرب المشهورة لها أكبر الأثر فى تقارب اللغات وتفهم الألفاظ والتراكيب المنتشرة بين القبائل المختلفة . قال أحمد بن فارس بعد أن تكلم فى كتابه الصاحبى على اختلاف لغات العرب ما يأتى : « وهى وإن كانت لقوم دون قوم فإنها لما انتشرت تعاورها كل » .

(١) قال ابن الجزرى فى كتابه غاية النهاية : « أذفو بضم الهمزة وسكون الذال المعجمة وفاء ، مدينة حسنة بالقرب من أسوان » . فلعل سكانها الآن ، يفضلون ما اشتهرت به قديما بالإعجام على ما ينطق به اليوم بالإهمال .

هذا وقد قرأ نافع المدنى « عسيتم » فى موضعيها السابقين بكسر السين وقرأ الباقون بفتحها .

٣ — فى اسم الإشارة المفرد المذكر والمؤنث لا تلحق به تميم اللام فى حالة البعد بل تلحق به كاف الخطاب فحسب . لكن الحجازيين يلحقون به اللام مع الكاف . فعند تميم « ذاك وتيك » للبعيد وعند الحجازيين « ذلك وتلك » ومن هذا يتبين لنا أن بعض النحاة حين يقولون . هذا للقريب ، وذاك للمتوسط وذلك للبعيد ، فيه خلط بين لغات القبائل إذ وجدوا صيغا ثلاثا فملئوا لها وفرقوا بينها . ونحن إذا لاحظنا مثلا كلمة « ذاك » فى إشارتنا نجدها أوضح فى البعد من « ذلك » لما فيها من إطالة لحرف المد وافية بالغرض . وما تزال فى كثير من قرى مصر بالصعيد تستعمل « داك » بالدال المهملة فى الإشارة البعيدة المذكر ، و « ديك » المؤنثة البعيدة . والواقع أن الشىء إما قريب[1] منك حسا أو معنى ، أو بعيد منك كذلك . وفى اللغة الانجليزية « this that » وفى الفرنسية « Ci la »

ومما يلحق بهذا أيضاً « هناك وهنالك » ، فالحجازيون هم الذين يلحقون اللام وتميم لا تلحقها جريا على قاعدتها من أنها لا تلحق اللام . وكذلك أولاء عدها الحجازيون غير أنهم يلحقون بها الكاف فقط فى حالة الإشارة إلى البعيد ، وتميم تقصرها وتلحق بها الكاف أما قبائل قيس وأسد وربيعة فإنها تقصر أولاء كتميم لكنها تلحق بها اللام[2] مع الكاف ، وقد ورد على لغتهم :

أولا لك قومى لم يكونوا أشابة وهل يعظ الضليل إلا أولا لكا

ومما يلحق بهذا أيضاً أن تميما لا تقول « هذه » فى وصل الكلام وإنما تقول « هذى » فاذا وقفوا قالوا « هذه » ، أما الحجازيون وقيس فيقولون « هذه » فى الوقف والوصل . ولم يرد فى القرآن الكريم استعمال « هذى ولا ذاك ، ولا تيك ولا هناك ، ولا أولا لك ولا أولالك » بل كل ما جاء فيه على لغة الحجازيين « إن هذه تذكرة » ، « وذلك هو الفوز العظيم » ، « تلك الرسل » ، « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ، « هنالك الولاية لله الحق » .

ويضاف إلى ما تقدم أن قبيلتى تميم وقيس تقولان « هاهِنَّا » بكسر الهاء وتشديد النون وغيرهما بضم ففتح بدون تشديد .

٣ — « إما » التى للتفصيل تنطقها قبائل تميم وأسد وقيس بفتح الهمزة ، ففى مثل « أنت إما كريم وإما بخيل » يفتحون همزتيهما وبعض منهم يقلب ميمها الأولى مع ذلك ياء . وقد روى لرجل من عبد القيس يقال له سعد وكان عاقا لأمه :

يا ليتما أمنا شالت نعامتها أما إلى جنة أما إلى نار

وروى أيضا « ايما إلى جنة ايما إلى نار » .

فاذا استعملت تميم « أما » الشرطية المفتوحة الهمزة قلبت ميمها المدغمة الأولى ياء . ويبدو أن الشعراء فى صدر الإسلام كانوا — تظرفا منهم أو لانتشار اللغات — يقحمون لغة قبائل أخرى ليسوا منها لشهرتها بين العرب ومعرفتهم لها ، ولذا نجد عمر بن أبى ربيعة وهو حجازى يروى بيته الآتى على لغة تميم :

رأت رجلا أيما إذا الشمس عارضت فيضحى وأيما بالعشى فيخصر

٤ — ما فتىء وما يفتأ فلان يعمل كذا — من أخوات كان — تقولها تميم ما أفتأ فلان وما يفتىء فتجعله رباعيا . ولم يرد فى كتاب الله إلا قوله تعالى « تالله تفتأ تذكر يوسف » ولم يقرأ بها أحد على لغة تميم .

٥ — لعل — من أخوات إن — تنطقها تميم لعن بالغين المعجمة والنون قال الفرزدق :

قفا يا صاحبى بنا لعنا نرى العرصات أو أثر الخيام

وليس فى القراءات الصحيحة هذا الاستعمال .

٦ — « العهة » : تأثرت بعض بطون تميم بالفرس ، كما تأثرت بذلك قبيلة لخم وما جاورها ، فبنو سعد بن زيد مناة من تميم ولخم ومن قاربها يبدلون الحاء هاء قال النعمان بن المنذر لرجل ذكر عنده رجلا : أردت أن تذمه فمدهته . وقال رؤبة بن العجاج وهو من بنى سعد بن زيد مناة :

(١) وهذا ما سار عليه ابن مالك وما رجحه الصبان على الأشمونى ، وقال إنه عزى لسيبويه .

(٢) ذكر المرحوم حفنى ناصف فى مميزات لغة العرب ، والمرحوم الرافعى فى تاريخ الأدب أن تميما كقيس وأسد وربيعة فى استعمال أولا لك ونقلهما قد يكون من شرح التوضيح ، الذى رجح خلافه الصبان وهو ما ذكرته .

لمـا رأتني خـلق المموه براق أصلاد الجبين الأجله
بعـد غـداني الشباب الأبله

ومنها: لله در الغانيات المده. أراد: الأجلح والمدح.

وقد وردت ألفاظ كثيرة في كتب اللغة مترادفة وليس من فرق بينها إلا أن هذه بالحاء، وتلك بالهاء مع أن الوزن والترتيب واحد. فكل ما ورد من ذلك، إنما هو نطق القبائل المتأثرين بالفرس. وفي رأيي أن جميع الألفاظ التي أبدلت حاؤها هاء يجب أن تحفظ كأثر أدبي تاريخي ولا ينبغي أن نستعملها في أساليبنا. ولذلك يجدر أن يلاحظ هذا من يقومون بوضع المعاجم فينخلوها ويضموها إلى أصولها المتفرعة منها، مشيرين إلى عدم جواز استعمالها ولا ينبغي أن يضعوها في مواد مستقلة. وأعتقد أنه لا يجوز لنا أن نقول فلان مليه حينما نريد أنه مليح. ومدهت فلانا حينما أقصد أنني مدحته ولا معنى لأن تجعل ملح أو مدح في باب الحاء فصل الميم ومله أو مده في باب الهاء فصل الميم في معاجم اللغة. وأذكر أنني كتبت في هذا الشأن بحثاً واسعاً نشر أغلبه وفيه قواعد وضوابط يمكن الاسترشاد بها لمن شاء.

٧ — المنمنة: تحرص القبائل النجدية على أن توضح الهمزة وبخاصة في أول الكلمة أو آخرها خشية أن يجور عليها بدء النطق أو الوقف فيقوون الهمزة إلى أن تكاد تقارب العين وفي بعض الأحيان ينطقونها عينا، وهذا ما يسمى حينئذ عنعنة وقد نسب إلى تميم وقيس أنهما تقولان في أن عن وفي أسلم عسلم وقد جاء من ذلك:

فمـا أبن حتى قلن يا ليت «عننا»
تراب و «عن» الأرض بالناس تخسف

ويبدو أن تميما تقلب الهمزة الأخيرة في بعض الأحيان عينا فقد ورد أن قبيلة تميم تقول في الخباء خباع.

٨ — الكشكشة والكسكسة: وكما تحرص القبائل النجدية على توضيح الهمزة تحرص كذلك على إبراز الحركة الأخيرة إذا كان في الوقوف عليها لبس وذلك في كاف المخاطبة إذ أن الوقف عليها بالسكون يجعلها تلتبس بكاف المخاطب فللفرق بينهما قلبوا كاف المؤنثة شينا ثم توسموا في ذلك فقلبوها في حالة الوصل أيضاً. وهذا ما يسمى كشكشة، وقد روى لقيس ابن اللوح:

فعيناش عيناها وجيدش جيـدها
سوى عن عظم الساق منش دقيق

وأصله عيناك وجيدك ومنك. وفي البيت شاهد آخر وهو همزة أن التي أبدلت عينا. ومن كشكشتهم ما يكون بالحاق شين ساكنة بكاف المخاطبة حين الوقف عليها (رأيتكش). وهذه الكشكشة وتلك في قبائل تميم وقيس وأسد وربيعة. وبعض بطون هذه القبائل يجعلون بعد كاف المخاطبة أو بدلها سينا وذلك ما يسمى الكسكسة.

قال الزبيدي في مقدمة شرح القاموس: الكشكشة في ربيعة ومضر والكسكسة فيهم أيضاً. وقال الأشموني: الكشكشة في لغة تميم والكسكسة في لغة بكر من ربيعة. وفي شرح الرضي على كافية ابن الحاجب: ناس كثير من تميم وأسد يجعلون مكان كاف المؤنث شينا.

غير أننا نجد صاحب القاموس — وشارحه الزبيدي أيضاً — تارة يقول الكشكشة لتميم والكسكسة لبكر. ومرة يقول الكسكسة لغة تميم لا بكر وقيل الكسكسة لهوازن وهي من قيس، ومرة يقول: كشكشة أسد وكسكسة ربيعة ويوافقه في ذلك أحمد بن فارس في كتابه الصاحبي. ومرة يقول الكشكشة في بني أسد أو في ربيعة. ومرة يقول إن إبدال الكاف التي للخطاب شينا لغة لبني عمرو من تميم. وعلى كل حال فإن بطون تميم جمعت بين النوعين ماذلك إلا لمجاورتها كما سبق أن قدمته في مقال سابق — لمختلف هذه القبائل من أسد وقيس وربيعة.

لكن أهل اليمن يجعلون الكاف شينا مطلقا وسمى ذلك شارح القاموس «الوتم» وسماه الأستاذ هاشم عطية في كتابه الأدب العربي نقلا عن بعض المصادر «الشنشنة» والقلقشندي في صبح الأعشى، قصر أهل اليمن على حمير، وقصر الكاف على التي للخطاب. هذا ولم تقع في القراءات الصحيحة تلك الأنواع من قلب الكافات شينا أو سينا أو إلحاق شين أو سين. وقد سمع في قراءة شاذة: قد جعل ربش تحتش سريا

طرائف من العصر المملوكي :

صلاح الدين الصفدي المؤرخ

للأستـــاذ محمود رزق سليم

إذا عُنينا في هذا المقال بالحديث عن صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي مؤرخاً ، فليس معنى ذلك أن هذه الصفة وحدها خصوصيته التي بها امتاز ، ولأجلها ذكر وفضل بين أعلام الأدب العربي . ذلك لأنه كان كاتباً مترسلا له منهج ، وأديباً كيساً له ذوق ، وشاعراً قادراً ذا نزعة . وهذا إلى جانب أنه من هواة التأليف ، بمعنى أنه ذو فن في اختيار موضوعاته ، وله ولوع بتلمس مادتها من بين الغرائب التي تند عادة عن الأذهان ، أو لا تفطن إليها في هوادة ويسر . وكل خصوصية من هذه ، جديرة بالدرس والبحث والتمحيص حتى تبرُز نفاستها للعيان .

والصفدي إلى جانب هذا وذاك — مكثار في نثره وشعره وتأريخه ، لا يرضى في عمله الأدبي بالوجز المقنع أو القليل النافع ، ولم يعمل قط بتلك الحكمة التي تقول : « خير الكلام ما قلّ ودلّ » . وكأنما كان يشعر أن ليس وراء الإيجاز إعجاز ، ولا في الاقتضاب إعجاب . وأن المقل إما أن يُبقي شيئاً في ضميره ، أو يعبر عن عجزه وتقصيره . وإذا كان الأديب بصدد أن يبعث خواطره مقالة باهرة ، أو ينفث مشاعره قصيدة عامرة ، يشعر أنه لم يبعث جميع ما في فؤاده ، ولم ينفث كل ما في نفسه ، وأن شيئاً في أعماقه لا يزال يقلقه ويؤرقه ، التمسنا العذر لصلاح الدين الصفدي في هـذا الإكثار الذي لم يبغ من ورائه إلا أن يبرز أكثر ما يستطيع إبرازه من خفيات خواطره ، ومدخرات نفسه ، جاهداً في أن لا يبقى في طواياها بقية يقلقه بقاؤها . — وهذا هو ما ينبغي أن يكون عليه الأديب ، حتى يمتع الناس بأكثر أدبه وفنه . وفي سبيل ذلك الإمتاع يتناسون له غثه وسقطه . وإن كان الأديب الموهوب معجباً معجزاً في إكثاره أو إقلاله .

كان الصفدي إذاً مكثاراً ، طبعه في ذلك طبع الأديب الملىء لا يهدأ لسانه لهجاً بالأدب وترديداً له ، وفي نفسه مشاعر تجيش ، وفي أطوائه أحاسيس تثور . وكان له مذهب في الكتابة والشعر يلتزم فيهما أموراً وقيوداً على رأسها الجناس ، فقد كان متعصباً للجناس مخالفاً في ذلك مذهب أدباء عصره الذين كلفوا بالتورية ولم يشغفوا بالجناس إلا إذا خرج مخرج التورية . وكان مولعاً — كما أعتقد — بمداعبة أدباء عصره ، ومن مسالكه إلى تلك المداعبة أن يسطو على شعر أحد أنداده ، فيسرق معانيه

٩ — المجمجة : اشتهر عن قضاعة وهي يمنية[1] من قبائل حمير أنها تقلب الياء المشددة الأخيرة جيما وذلك لضعف الياء فقلبوها حرفا قويا وهو الجيم لكن « فقيا » من دارم من تميم كثيراً ما تقلب الياء وسطا أو آخرا مشددة أو مخففة جيما تقول في أيّل المشدد أجل وفي أزيم المخفف أزجم وفي غلاى غلامج وفي تميمى تميمج ما ذلك إلا حرصاً على إبانة الحروف ، وقد سمع في المشدد :

خالي عويف وأبو « علج » المطعمان اللحم « بالعشج »

وسمع في المخفف :

لا هم إن كنت قبلت « حجتج » فلا يزال شاحج يأتيك « بج »

ولم ترد هذه اللهجات المستكرهة في قراءة صحيحة لكتاب الله الكريم .

(البحث بقية)

عبد الستار أحمد فراج
محرر بالمجمع اللغوي

(١) رجح جورجي زيدان في كتبه أن قضاعة من القبائل العدنانية بدون أن يبدى حجة على ترجيحه وقد فعل ذلك بعض الكتاب الحديثين أيضاً . والواقع أن الاختلاف بين مؤرخي العرب قديم ولكني أرجح أنها يمنية لما يأتي :

١ — قبيلة كلب بطن من قضاعة ومعلوم أن معاوية بن أبي سفيان والأمويين كانوا يثيرون العصبية اليمنية وكانت كلب تناصر معاوية ، وقد اتفقت الكتب على أنها يمنية .

٢ — قبائل اليمن اعتادت نظام الملك والإقامة في الأراضي الخصبة ، نزحوا إلى شواطىء تهامة ، ثم نزحوا منها إلى أرض العراق والشام ولم يستوطنوا داخل الجزيرة اللهم إلا الأوس والخزرج الذين أقاموا بالمدينة وهي خصبة . وبطون قضاعة وأخوتها بطون كهلان انتشرت في تلك البقاع الخصبة وأسست الممالك ، وكان الملك في الشام والعراق للقضاعيين قبل الكهلانيين ، أما العدنانيون فما كانوا يعنون بالملك ولا بالاستقرار في الحضر .

أو ألفاظه ، أو يسلبه شيئاً منها ، حتى يثيره ويهيج خاطره . وفى مقدمة هؤلاء الأنداد شاعر العصر وحله الجمال بن نباتة المصرى؛ فكان من جراء ذلك كله ، أن شغل الصفدى أهل عصره وأثار ثائرة أدبائه ، بل والأدباء من بعده . فألف فيه ابن نباتة كتابه « خبز الشعير » الذى جمع فيه سرقاته من شعره . وحمل عليه ابن حجة من بعده فى خزانته ، ونعى عليه جنونه بالجناس حتى ألف فيه كتابه « جنان الجناس » . وأنشد ابن أبى حجلة المغربى يقول عن الصفدى وسرقاته موريا :

إن ابن أيبك لم تزل سرقاته تأتى بكل قبيحة وقبيح
نسب المعانى فى النسيم لنفسه جهلا فراح كلامه فى الريح

وهكذا ترى بين قدامى النقاد من لا يرحمون الأديب ، ولا يتسكيسون فى نقده ، ولا يترفقون بسقطاته ، ولا يعتذرون لنته على أن الصفدى ، قد قدم المعذرة لنفسه بين يدى نقاده وقرائه ، عما اجترح ، فقال فى مقدمة كتابه « ألحان السواجع » ما يلى :

« وليعذر الواقف على ما هو منحط العمل ، غير راق إلى درجة الكمال بدره ، ولم تشرق شمسه فى الحمل ؛ فان فيه أشياء لم تهذبها الروية ، وأعجلها الارتجال ، وألقاها الفكر من رأس القلم فجاءت فيه بقيات الطريق لعدم الوصول إلى ربات الخدور والحجال وليس يعاب المرء فى يوم جبنه إذا عرفت منه الشجاعة بالأمس »

هذا كله كلام يقال عن الصفدى إذا كان الحديث عن كتابته الفنية أو شعره . أما إذا كان الحديث عن كتابته فى التاريخ ومؤلفاته فيه ، فان مسلك الكلام يتغير ، ومجرى القول ينحرف . فالمؤرخ المكثار له جلاله وخطره . حقاً قد يسوق مثل هذا المؤرخ قارئه إلى شئ من الشك ، يدفعه إلى حسن النظر ودقة التمحيص ، كما قد يختلط فى قوله ، التافه والمرذول ، بالنافع والمقبول . ولكنه ، حتى فى هذه يستطيع الباحث فيه والمعقب عليه أن يستنبط أموراً لها قوتها وقدرتها فى مجال الاستدلال التاريخى .

وقد برز فى العصر المملوكى جملة من كبار المؤرخين المكثرين الذين لم يقنعوا بالقليل ، فوضعوا فى تاريخ بلادهم وغيرها الموسوعات الجامعة . منها ما هو فى التاريخ السياسى العام ، ومنها ما هو فى تراجم الأعلام ، ومنها ما هو فى الخطط والآثار ، إلى غير ذلك . ويرى المطالع فى مستطرداتها ، طرائف جمة معجبة مطربة ، فى نظم البلاد وإدارتها وآدابها وتقاليدها ومزاج أهلها وروح مجتمعها . وتوالوا على هذا الغرار زمراً بعد زمر ، وجيلا إثر جيل . وقد كان من نصيب القرن الثامن الهجرى أن لمع فيه نجم الصلاح الصفدى مؤرخاً ، فضلا عن لمعانه أديباً وناقداً .

ولد الصفدى بصفد عام ٦٩٦ هـ أو ٦٩٧ هـ . وشرع منذ حداثته يتعلم صناعة الخط حتى مهر فيها . ومال إلى الأدب وسماع الحديث . ونبه فى الكتابة والنظم . وأخذ يطوف فى طلب العلم بين آفاق مصر والشام ، حتى برز بروزاً واضحاً بين أدباء البلدين ونهج من دونهم منهجه الخاص الذى أشرنا إلى طرف منه . وراسل وساجل وداعب وعقد لواء المحبة والصداقة بينه وبين كثيرين من أفذاذ جيله . واشتغل بالتأليف وجمع الأدب وبخاصة آثار معاصريه . وولى عدة مناصب منها : كتابة السر بحلب ، وتصدى للتدريس بجامع دمشق فى أخريات حياته ، وتوفى بها عام ٧٦٤ هـ .

وتنقسم مؤلفات الصفدى إلى نوعين : ١ — مؤلفات أدبية ٢ — مؤلفات تاريخية . وفى الحق أن من الصعب أن نفرق بين النوعين ؛ وذلك لأن كتبه الأدبية — وإن كانت فياضة بصنوف الشعر والنثر والنقد ، يروى فيها ويقرن وينقد وينوع ما شاءت له مجموعاته الفريدة — لم تخلص لوجه الأدب ، بل تتخللها السير والأخبار ، ويعلوها ذكر الحوادث وقص الوقائع . وكتبه التاريخية — وإن كانت فى صلب التاريخ وذكر حوادث الرجال وسرد أنبائهم — لم تخلص لوجه التاريخ ، بل يتخللها الكثير من الشعر والنثر . فهى مدد عظيم للأدب ، كما أنها معين فياض للتاريخ .

وكتبه التاريخية كلها فى تراجم الرجال . وهذا يدلنا على تأصل الروح الأدبية فيه ، لأن كتب التراجم تمت — عادة — إلى الأدب بصلة قوية كما تمت للتاريخ . ولولا أن تراجمه تحتوى على سير الملوك والأمراء والقادة ومن لف لفهم من أهل السياسة والإدارة والحل والربط ، لعددناها بين الكتب الأدبية الخالصة . فهى بلا ريب منهل عذب لتاريخ الأدب ورجاله — وليس معنى

ذلك أن الرجل بعيد عن ميدان التاريخ الصراح . لا ! بل إننا لنشعر شعوراً قوياً — كلما تصفحنا مؤلفاته — بأصالة النزعة التاريخية فيه .

وأفضل ما تمتاز به مؤلفات الصفدي بنوعيها المناية بتراجم معاصريه وتسجيل نصوص من شعرهم ونثرهم مع نصوص من شعر المؤلف ونثره . وهكذا ترى أنها مصادر فريدة لأدب جيله وتاريخ رجاله وأن من كتب بعده في أخبار الرجال اعتمد عليها اعتماداً ملحوظاً عند حديثه عن الجيل المذكور . كما أنها تدلنا دلالة ملموسة على ذيوع الروح الأدبية فيه ، وعلى تمدد آفاقها التي سرحت إليها ، وذلك لكثرة ما سجل من تلك النصوص فيها ، مع تنويعها .

وأبرز موسوعات الصفدي التاريخية كتابه «الوافي بالوفيات» ولعل الصفدي قرأ كتاب ابن خلكان (٦٨١ هـ) . « وفيات الأعيان » وهو جزآن في التراجم ، فرآه ضئيلا لم يف بتراجم كثير من الأعلام . فأحب أن يستدرك عليه ويعقب بما وسمه عله . فألف لذلك كتابه « الوافي بالوفيات » وهو اسم متأثر بتسمية ابن خلكان غير أن فيه دلالة على فكرة مؤلفه .

وقد ذيل ابن شاكر الكتبي كتاب وفيات ابن خلكان ، بجزأين صغيرين في كتاب سماه « فوات الوفيات » أقل شأناً من وفيات ابن خلكان في كثير من خصائصه .

ولكننا لا ندري بالضبط أي الرجلين : الصفدي أم ابن شاكر سبقت إليه فكرة التعقيب والاستدراك . ونحن نعتقد أن الصفدي أسبق ، لأن ابن شاكر كلما ذكره الصفدي في «فواته» قال « رحمه الله » . ونذكر هنا — بهذه المناسبة — أن الرجلين ماتا في عام واحد هو (٧٦٤ هـ) . كما جاء في درر ابن حجر . غير أنه من الغريب أن ابن شاكر انتهى من تأليف « فواته » عام ٧٥٤ هـ . فهل مات الصفدي في هذا التاريخ أو قبله وغلط في ذلك ابن حجر ؟ أم أن إضافة « رحمه الله » إلى الصفدي من صنع الناسخين أو الطابعين ؟ .

ومهما يكن من شيء ، فقد ألف الصفدي كتابه « الوافي » — وهو من أسبق مؤلفاته — ليفي فيه بتراجم الأعلام من كل صنف بدون تفريق بينهم في العصور أو الأمصار أو الفنون أو الحرف . وبلغت أجزاؤه نحو الخمسين ، بها من التراجم بين

موجز ومطول . ومن سوء الحظ ، أن الأحداث بددت هذه الأجزاء وفرقت شملها ، ولو جمعت وطبعت لألقت أضواء ساطعة جديدة على أدب مصر والشام وتاريخهما .

وفي دار الكتب المصرية منه سبعة عشر جزءاً بالتصوير الشمسي عن مخطوطة . وبها أيضاً الجزء الأول في طبعة أنيقة ممتازة ، طبعت في الآستانة عام ١٩٣١ م بإشراف جمعية المستشرقين الألمانية .

وقد تحدث المؤلف في خطبة الكتاب عن الأمة الإسلامية ورجالها ومآثرهم . ونوه بالغرض من كتابه . واختتم بذكر أسماء من ألفوا في السيرة النبوية مع بيان مؤلفاتهم فيها .

واتبع الصفدي في إيراد التراجم الترتيب الهجائي . غير أنه ابتدأ بالمحمدين ثم الأحمدين تيمناً باسم الرسول عليه الصلاة والسلام . ويهمنا أن ننوه بشيئين : أولهما أن الصفدي قدم مؤلفه بمقدمة عظيمة القيمة جليلة النفع . وهي مثبتة في الجزء المطبوع . وقد رأيتها مطبوعة على حدة في كتيب ، وكان طبعها عام ١٩١٣ م بباريس تحت إشراف « إميل أمار » ومعها ترجمة لها وتعليقات عليها بالفرنسية . وتتكون هذه المقدمة من أحد عشر فصلا ، ويبدو أنه متأثر في بعض فصولها بما كتبه أبو الفداء في مطلع كتابه « المختصر » . وقد تحدث في الفصل الأول عن السنين التي أرخت بها العرب ، ككوت كعب بن لؤي ، وعام الفيل . وانساق في خلاله إلى ذكر اشتغال العرب بالنجوم ، وخلق آدم وظهور الاسكندر ، وما قيل في ذلك . والطوفان وذي القرنين ، وما بين المرسلين من السنين إلى غير ذلك . وفي الثاني تكلم عن مادة « أرخ » من الناحية اللغوية وما اشتق منها وطريقة العرب في التعبير مؤرخين بالأيام والليالي . وفي الثالث تكلم عن كيفية كتابة التواريخ وتحديد الأيام . وفي الرابع تكلم عن « النسب » من الناحية الصرفية ، ثم بين أهميته التاريخية مشيراً إلى مفارقات طريفة وقعت للتشابه في صيغ النسب . وفي الخامس تكلم عن العلم والكنية واللقب ، وترتب كل منها على النسبة . والفصل السادس هو فصل هام في علم الإملاء ورسم الحروف . وتكلم في السابع عن مناهج المؤرخين في ترتيب التراجم أو الحوادث ، وعن طرق ضبطهم لحروف المعجم والمصطلحات الخاصة بذلك .

وفى الثامن تحدث عن لفظ « الوفاة » وما يشتق منها « والأجل » واختلاف المذاهب فى تحديده . وفى الفصل التاسع ، تكلم عن فوائد التاريخ من ناحية ضبطه للحوادث ، وأورد طرائف تاريخية ظهرت فيه ضرورة تحديد تاريخ كل حادثة . وتكلم فى العاشر عن أدب المؤرخ وما ينبغى له من علم وخلق . وفى الفصل الحادى عشر ذكر عدداً ضخما من كتب التاريخ وأسماء مؤلفيها . فهو سجل هام من هذه الناحية .

أما الشىء الثانى الذى أحببنا أن نشير إليه ، فهو أن المؤلف اختص معاصريه ببضعة أجزاء من أجزاء كتابه « الوافى » جعلها على حدة وسماها « أعيان العصر وأعوان النصر » وهو مؤلف ممتع جداً ، ترجم فيه الصفدى لمئات من أهل عصره سواء منهم من لقيه ومن لم يلقه . وأودع تراجمهم نصوصاً من أشعارهم أو نثارهم ، ندر أن تجدها فى سواه . فهو — فى نظرنا — أهم كتب التراجم لأعلام النصف الأول من القرن الثامن . وإذا علمنا أن ابن حجر العسقلانى ألف كتابه القيم « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » فى أربعة أجزاء ، وأن مؤلف الصفدى « أعيان العصر » ثلاثة أمثاله ، بأن لنا قدره وعظم أهميته . وأجزاء هذا الكتاب ، لا تزال مغتربة عن وطنها ، وفى دار الكتب المصرية منه ثلاثة أجزاء هى الثالث والسادس والسابع يقع كل منها فى مجلدين . وهى مصورة تصويراً شمسياً عن نسخة مخطوطة .

ومن أمتع كتبه التاريخية كتاب « نكت الهميان فى نكت العميان » . وهو مطبوع وذو موضوع طريف ، وهو الحديث عن العميان وبيان أحوالهم شخصية وغير شخصية ، وشرعية وغير شرعية ، وما يدور حولهم من نوادر وفكاهات وحوادث أدبية طريفة ، وترجمة النابهين منهم . ويحتوى الكتاب على عشر مقدمات ونتيجة واحدة . وفى المقدمات المذكورة جملة بحوث نافعة فى فنون العربية المختلفة وتعتبر المقدمة الأولى ذات قيمة فى فقه اللغة إذ بحث فيها عن مادة « العين والميم » وما يتصل بها من الحروف ، وما تدل عليه من المعانى ، ورأى أن هذه المادة مهما اتصل بها من الحروف تدل على التستر أو نحوه . وبحث عن مادة « أعمى » . وتكلم عن تفضيل السمع على البصر أو العكس

وفسر قوله تعالى : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » ، وقوله « وما يستوى الأعمى والبصير » . وتعرض للحديث الشريف الخاص بقصة الأقرع والأبرص والأعمى ، الذين آتاهم الله ما يريدون ، فلم يشكره منهم إلا الأعمى . وتحدث عن بعض الأحكام الشرعية الخاصة بالعميان كالإمامة فى الصلاة ، ووجوب الجمعة إلى غير ذلك .

أما النتيجة فهى فى صلب التاريخ إذ ترجم فيها لنحو ثلثمائة وخمسين كفيفاً ، سواء منهم من ولد أعمى ، ومن كف بصره بعد ولادته . وأورد فى كل ترجمة الحوادث البارزة فى تاريخ صاحبها وشيئاً من شعره أو نثره إذا كان أديباً وهكذا .

ولهذا المؤلف خصوصيات نافعة فمنها أن فيه تراجم لأعلام معاصرة للصفدى وأنه جرى فى ضبط كثير من الأعلام مجرى ابن خلكان فى ضبطها ، أى أنه ضبط نطقها بالحروف ، وأنه حدد مواقع بعض الأماكن ، وأنه أودعه شيئاً من آثاره الأدبية وآثار بعض معاصريه .

وعلى نمط من هذا المؤلف ، أخرج كتابه « الشعور بالعور » وهو فى تراجم هذا الصنف من الرجال . ومنه مخطوطة بدار الكتب . وللصفدى كتاب « التذكرة الصفدية » فى أكثر من خمسين جزءاً ، فى دار الكتب منها خمسة مخطوطة ، فى خلالها فصل عن تاريخ الآداب العربية وفنونها ونشأتها ، وفصل آخر فيمن ولى دمشق من أول عهد بنى العباس إلى عصر المؤلف . وهى مليئة — إلى جانب ما تفيض به من النصوص الأدبية بأخبار الأعلام وحوادثهم .

وترى هذه الروح سارية من الصفدى فى معظم مؤلفاته ، مثل كتابه « ألحان السواجع بين البادى والمراجع » وهو مخطوط بدار الكتب كذلك ، وبه أخبار وسير ووقائع بجانب ما يمج به من أنباء المراسلات ونصوصها ، مما كان بين الصفدى وأنداده .

وبعد فهذا رجل من رجال العصر المملوكى ، يضيق مقال واحد عن أن يستوعب أخباره وأسفاره ، آثرنا أن ننوه هنا بإحدى خصوصياته ، لعلها تنم عن علمه وفضله ، وأدبه ونبله .

محمود رزق سليم

مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

التفكير بين الإنسان والحيوان

للأستاذ عبد المنعم عبد العزيز المليجي

كشفت البحوث النفسية في مجالى الإنسان والحيوان عن حقيقة قد تطامن من غرور الإنسان بعض الشيء ، تلك هي أن الحيوان لا يسلك سلوكا آليا بحتاً كما ظن ديكارت الفيلسوف الفرنسي ، بل ولا يسلك سلوكا غريزيا بحتاً كما اعتقد الكثيرون زمناً طويلا ، وإنما سلوكه في كثير من المواقف ينم عن قدر من الذكاء العملي يمكنه من التصرف إزاء ما يجد من مواقف تصرفاً كفيلا بتحقيق أغراضه . فهو لا يهتدي بالفطرة وحدها التي تسم السلوك بطابع الجمود ؛ وإنما هو يعدل سلوكه ويبتكر الوسائل الجديدة ، حتى ليسهل علينا أن نلحظ — لدى الحيوانات العليا على وجه الخصوص — أنماطا من السلوك تتصف بالمرونة وتنم عن قدر من الذكاء لا يقل كثيراً عن ذكاء الأطفال في نفس المواقف . ومن التجارب العلمية ما يثبت قدرة الحشرات على الاستفادة من التجارب الماضية في التكييف للظروف الجديدة ، وفي هذا تكمن البذرة الأولى للذكاء .

وكلما صعدنا في السلسلة الحيوانية زاد ذلك القدر من الذكاء العملي الذي يبلغ أقصاه لدى الكلاب والقردة . وبذلك تتلاشى الأسطورة القديمة التي تفصل فصلا حاسماً باتاً بين عالم الحيوان المحكوم بالغريزة ، وعالم الإنسان المحكوم بالعقل ، وتسفر الحقيقة التي لا مراء فيها : ألا وهي أن الكائنات الحية تنتظم سلسلة متصلة الحلقات من أسفل إلى أعلى ، منطقها التطور من الأشكال الدنيا للحياة إلى الأشكال العليا في غير ما اختلاف حاد يكسر وحدة الحياة على ظهر الأرض ، وتضييق الشقة الفاصلة بين الإنسان والحيوان . فكلاهما يسلك سلوكا غريزيا وكلاهما يسلك سلوكا عقلياً رائده الذكاء . فما الفارق إذن بين ذكاء النوعين ؟

الإنسان من حيث السلوك العقلي في قمة الحيوانات ؛ فهو أقدرها على السلوك سلوكا عقليا . هو في حياته يصارع الطبيعة وأحداثها ، لا بحكم الفطرة فحسب ، بل يفوق الحيوان قدرة على استغلال ذكائه في صراعه هذا مع الطبيعة . تقسو عليه ببردها وقيظها وأمطارها فيهرع إلى الأشجار يتخذ من أغصانها بيوتاً . تتوالى عليه فصول السنة بعضها فيه الخصب ووفرة الغذاء ، وبعضها جدب لا طعام فيه ، فيبتكر الوسائل يتجنب بها المجاعة ، ويهتدي بعد تدبر وإعمال روية إلى ما نعرفه من مختلف أساليب خزن المياه وحفظ الأطعمة ، وعدم الاكتفاء بما تدر الأرض بطبيعتها ؛ فيزرع ويستغل كامن قواها . يخشى هجمات الوحوش الضارية ، وعدوان القبائل المعادية ؛ فيتخذ العدة لذلك بصنع الأسلحة مستخدماً كل ما تقع عليه يده من أحجار وأشجار ومعادن . وهو إذ يفعل ذلك يهتدي بذكائه ، بتفكيره العملي الذي يتطور مع الزمن تطوراً يكشف عنه ما لاحظه العلماء المنقبون عن آثار العصور البائدة من تطور الآلة الإنسانية من الآلة الحجرية القديمة إلى الحجرية الحديثة إلى المدنية ؛ والأسلحة من الأحجار إلى النبال فالخناجر والسيوف فالبنادق حتى القنبلة الذرية في العصر الحديث .

وهكذا في كل ميدان من ميادين الحياة يستخدم الإنسان تفكيره وسيلة لتحقيق أغراضه ، وهذا هو الأصل في التفكير: وظيفة حيوية عملية تعين الحيوان على الصمود في الحرب الخالدة بينه وبين قوى العالم الطبيعي التي لا تعرف التراجع ، وذلك أن الفطرة وحدها لا تكفل انتصاره .

بيد أن اختلاف التفكير الإنساني عن التفكير الحيواني ليس اختلافاً في الرتبة أو الكمية فحسب ؛ بل هو اختلاف في النوع أو الكيفية أيضاً . فتفكير الحيوان عملي كله ، هو برمته وسيلة إلى العمل ، إلى الحياة والبقاء . لا يستغل الحيوان قدرته العقلية المتواضعة إلا في إرضاء مطالبه الغريزية : من الاغتذاء ، والاحتماء ، وحماية الصغار ، والتناسل الخ . أما الإنسان فبعد إرضاء مطالبه الغريزية يستغل قواه العقلية في الكشف عن أسرار ما يدركه من ظواهر الكون والبحث عن علل الحوادث التي تقع تحت ناظريه ، وتفسير التغيرات التي تطرأ على مختلف الكائنات . ولا شك أن الحيوان كالإنسان فطر على حب الاستطلاع لكل جديد تجنباً لما قد ينطوي عليه من خطر ، أو طمعاً فيما قد يدره من خير ونعمة ؛ ولكن الإنسان يتجاوز هذه الحدود النفعية فيستطلع أحياناً من أجل المعرفة في ذاتها ، ويجني من وراء ذلك لذة لا تقل عن اللذات الجسدية التي يجنيها من وراء إشباع ميوله الغريزية الأخرى .

لذلك كان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يفكر أحياناً من أجل التفكير في ذاته ، بل والذي يجاوز ذلك إلى التفكير في التفكير : يحصى أساليبه ، ويفتش عن مصادره ، ويسجل

من وحى السودان :

أشواق النيل !

(إلى أخى المجاهد فى الجنوب !)

أخى يا أخى ... يا أخى بالجنوبْ
دماء تُراقُ وشعبٌ يُهـــان
لقـد صرَخ النيـلُ والشـاطئان
متى يا أخى ينعـــم التوأمان
فنى قلب مصر ... أخى رغبتان
جـــلاء الدخيل ... ومجـــد الجنوب

أخى يا أخى طال عهـــد الجمودْ
وضـلت بنـــا خادعات الوعودْ
وهل يصـدق المهـــد قلبٌ حقود !
يدسُّ مع الوعد سُمّ الوعيـدْ
أخى يا أخى آن حطم القيـود
وحان الجـــلاء . وبعث الجنوب

أخى موكب الدّهر ماض يسير
وويلٌ لمن لم يجدَّ المسير
ليلحق بالرَّكب قبـل المصير
وسيّان هام المـــلا . والقبُور !
لمن يا أخى مل عيش الأسـير
فثر . يا أخى . يا أخى بالجنوب .

حسين محمود البشبيشى

أخطاءه ، وينقب عن أسباب الوقوع فى الخطأ ، ويمدد السبل الموصلة إلى المعرفة . والإنسان عند ما يفـكر هـذا النوع من التفكير نقول إنه يفكر تفكيراً نظرياً لا غرض له إلا المعرفة . على أن هذه المعرفة تعود عليه بالنفع العملى وتزوده بأمتن الأسلحة التى تكفل له النصر فى معركة الحياة على قوى الطبيعة الغاشمة التى لا تبالى بغير المضى فى الطريق المرسوم وفق قوانين جامدة لا تتزحزح ولا تتزعزع . وسأحاول فى مقال قادم أن أكشف عن فارق جوهرى آخر هو السر فى طفرة الإنسان وتربعه على عرش الـكائنات الحية ، وتمرده على الطبيعة تمرداً بلغ به حد استغلال قواها لمصلحته والسيطرة عليها بفهم أسرارها وفضح خباياها .

عبد المنعم المليجى

أيها العابرون*

عبرت والخضم يصخب والمو   ج مخيف يطبق الأسمـاعا
ومضت تمخر العباب وفى الأفـ   ـق أعاصير تستفز القـلاعا
موجة إثر موجـــة تترى   كجبال قد اقتلعن اقتلاعا
وعلى الفلك ساهرون ولـكن   لا يطيقون فى الخضم دفاعا
أيهـا العابرون كيف أمنتم   ثورة البحر فاندفعتم سراعا
دون زاد وفى الطريق خطوب   جامحات فهـــل حملتم متاعا
ثورة اليم لا تطـاق إذا لم   تحمل الفلك عـدة وشراعا
وقلوباً من الحديد تشظت   فاكتسحت قوة وجلّت صراعا
لا نفوساً إذا الأعاصير هبت   فزعت خيفة وطارت شعاعا

أين ربانك يا فلك وأين المصـير
وعلى الدفة من لا يدرك الأمر الخطير
زخر اليم للموج اصـطخاب وهدير
فاسبحى كالطير أو عودى كما شاء القدر
إن دنيا البحر ، يا فلك ، عناء وخطر

وانبرى من مجاهل الغيب صوت   هادىء النبر خافت الألحان
هاتف مثلما تموج على الثغر   تسـابيح شاعر حيران
أيها العابرون قد عسعس الليـــل ثقيل الخطا على الأجفان
والخضم الرهيب كالرعد فى الأفـــق ، وكالنار فى فم البركان
وطواغى الأمواج تعبث فى البحـ   ـر كخيل طليقة الأرسان
وأرى الفلك لا تطيق اتزانا   بين موج معربد غضبان
سخر اليم من بقايا شراع   يتلاشى كقبضة من دخان
ومسامير خاويات ولوح   كشموع تلح فى الذوبان
وإذا ما استبد بالفلك موج   أفلت الحبل من يد الربان

أتراها وهى بين الموج تطفو وتعوم
وعلى الأفق أعاصير ورعد وغيـوم
ونســـور تتلظى كالمنايا وتحوم
تعبر اليم وتطوى موجة البحر الغشوم ؟
أم تراها تتوارى بين طيات العدم
فينال الحوت ما شـاء وينتاش الرخم ؟

ابراهيم الوائلى

(*) من ديوان : فجر وضباب .

ألحان الساكن الثائر

بين الآسى ساكن وسنان
يبدو عليه الصبر والإيمان
وقد يضاعف الأسى الكتمان
ورب كتمان هو البيان

معذب مستسلم لما به
همومه تصهر من شبابه
وهو يطيل الصمت غير آبه ..
كأنه ينعم في عذابه !

يقول مفصحاً لسان حاله :
كذلك الزمان مع رجاله ..
وما حلا أو مرّ من فعاله ..
لا بدّ للمرء من احتماله !

تحسبه — يا صاح — في سُبات
فلا تمير أيّما التفات
لغارق في لجة الحياة
يستعرض الأهوال في ثبات !

لا يشتكي لصاحب حميم ..
ولا يئن وهو في الجحيم ..
فلا ترى من سره المكتوم ..
إذا اختبرته سوى الوجوم !

تثور في هيكله الرزين
جحافل شتى من الشجون
فيلتقي الشدة بالتهوين
ويحجب الثورة بالسكون !

لم تغتمض في راحة عيناه
فكلها متاعب دنياه
إذا سمى أخفق في مسماه
وإن أوى نبا به مأواه !

حامد بدر

نظرات في كتـــاب
الفكر الاجتماعي
للأستاذ كامل كيلاني

— ١ —

في فترة عارضة من فترات السآمة والملل ، أعقبت ساعات جاهدة من العمل ، فتحت هذا الكتاب كما اتفق ، فكان أول ما وقعت عليه عيناي تلك الصورة التي ثبتها المؤلف ، حين عرض لعبادة العرب للأشجار والحجارة(١) ، وهي تمثل للقارئ لونا عجيبا من أخيلتهم ، وترسم صورة رائعة مما استقر في أخلادهم ، وتجلو بعض ما كانوا يتناقلونه من الأساطير عن معبودتهم «العزى» التي كانوا يتخيلونها شيطانة ثائرة ، تبدو — لمن يراها في صورة حبشية غضبى — ، تأتي ثلاث سمرات (شجرات من أشجار الطلح) نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، وهي تصرف بأنيابها (تسحقها وتحك بعضها ببعض حتى يسمع لها صوت) .

وما كدت أبلغ قول المؤلف الفضال :

« وكذلك كانت عبادتهم لذات أنواط ، فقد اعتقدوا أن معبوداتهم الحية كانت تحل تلك الأشجار والأحجار » .

حتى طويت الكتاب ، على عادتي كلما بلغت من المطالعة فترة يحسن الوقوف عندها ، والتفرغ لها . وسرعان ما استغرقني التفكير ، وأسلمني التأمل إلى عوالم فسيحة من الحقائق التي تفوق الخيال في غرابتها ، ولم أتمالك أن رجعت القهقرى حتى بلغت العصر الجاهلي الذي طالما عشت فيه ، تارة في صحبة مؤرخي العرب والفرنجة ، وتارات في صحبة المبدعين من الشعراء والكتاب وبا طالما نعمت بالتجوال في ذلك العصر الغابر ، وأنست بارتياد روائعه في رفاقة أستاذي « المعري » . وطالما انتفعت بإشاراته في رسالة الغفران وما إليها من بديع آثاره . كما انتفعت بصحبة العلامة « دوزي » في ارتياد كثير من تلك المجاهل السحيقة ، حين ترجمت طائفة من فصوله الممتعة التي أودعتها كتاب : « ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام » .

فلا عجب إذا عاودني الحنين والشوق إلى استئناف الدرس حين طالعت تلك الفقرات :

« وذو الشوق القديم — وإن تعزى —
مشوق حين يلقى العاشـــقينا »

ولا عجب إذا تواثبت الخواطر ، وتدافعت الذكريات ، فلم أدر أيها أثبت وأيها أدع ، ولا عجب إذا نسيت أن علي أن أكتب مقدمة موجزة في بضع صفحات ، لا دائرة معارف في عشرات من الأسفار المطولات :

ورأيتني أستمرض — عن غير قصد — طائفة من أمثال هذه الأسطورة العربية الشائقة التي أثبتها المؤلف الفضال في كتابه النفيس ، متمنيا أن يتعاون معه طائفة من أعلام القصة لاستغلال أمثال هذه الأسطورة العربية البارعة ، بعد أن تظاهرهم طائفة من كرام الباحثين على درس هذا التراث الحافل ، وتعرف رموزه وحل معمياته ، وتجلية ما غمض من خوافيه وأسراره ، وأن يعنوا بإحيائه كما عني غيرهم من شعراء الغرب وأعلام كتابه وباحثيه ، وأفذاذ علمائه وقصاصيه ، باستغلال ما ظفروا به من الأساطير الإغريقية وما إليها من أساطير الأمم القديمة .

ولم أتمالك أن شكرت للمؤلف عنايته المحمودة بهذا اللون الفكري البديع . ورأيتني أجرى على عادتي في التعليق على هامش ما أقرأ من نفائس الكتب .

وانثالت المعاني والصور وتتابعت ، حتى خشيت — كما أسلفت — أن تدفعني إلى تأليف سفر ضخم . فاجتزأت بإثبات بعض ما قاله « المعري » في هذه الشجرة المحظوطة التي أطلقوا عليها « ذات أنواط » ، فقد أشار إليها في رسالة الغفران إشارة نافعة حين عرض للحديث عن أشجار الفردوس فقال :

« وذات أنواط شجرة كانوا يعظمونها في الجاهلية . وقد روى أن بعض الناس قال : يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط » .

وهنا قبس « المعري » قول أحد الشعراء :

« لنا المهيمن يكفينا أعادينا كما رفضنا إليه ذات أنواط »

وفي بعض هذا دليل على ما بلغته ذات أنواط من خطر الشأن ورفعة المنزلة .

وقد شغل المعري — في أكثر من موضع من نفائس

(١) أنظر صفحة ١٠١ من الكتاب .

كتبه — بهذه الشجرة ، التي ظفرت — على حقارتها — بمثل هذا التكريم ، وأفردها الحظ بما لم يظفر به غيرها من إجلال وتعظيم ، فأضفى عليها عبادها من القداسة هالة باهرة ، فتنتهم وسحرت ألبابهم واستعبدتهم . فأكبروا من أمرها ما صغر ، ومجدوا من شأنها ما حقر ، ولم يكتفوا بعبادتها فى جاهليتهم ، فراحوا يكاثرون الرسول صلى الله عليه وسلم بها ، ويطالبون إليه أن يهيىء لهم شجرة تماثلها وتساميها فى قداستها وشرفها .

وهكذا أدركها الحظ — على عقمها من الثمر — كما يدرك بعض الأغمار التافهين من الناس ، فيضفى عليهم ألواناً من النباهة والرفعة ، على ما ركب فى طباعهم من العقم والحقارة والعجز .

وفى هذا يقول المعرى :

« والجد يدرك أقواماً فيرفعهم وقد ينال إلى أن يُسْنِدَ الحجرا
وشرفت ذات أنواط قبـــائلها ولم تباين — على علاتها — الشجرا »

وكانت « ذات أنواط » سمرة (شجرة طلح) ، لا تكاد تختلف عن تلك السـمرات الشائكة الثلاث التى كان الجاهليون يتخيلون معبودتهم « العزى » قادمة عليها فى صورة حبشية .

ولا تختلف عن السمرات التى أشار إليها امرؤ القيس فى معلقته حين قال :

« كأنى غداة البين ، يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل »

وشجر الطلح معروف ، وقد أشار إليه المرحوم شوقى بك حين قال :

« يا ناعم الطلح أشـــباه عوادينا
نأسى لواديك ؟ أم تأسى لوادينا ؟ »

كما أشار إليه « المعرى » ونبه إلى إجداب هذا الشجر ، وعقمه من الثمر ، فى قوله :

« وأبغضت فيك النخل ، والنخل يانع
وأعجبنى - من حبك — الطلح والضال »

وقد ألف العرب أن يطلقوا على شجرة الطلح « أم غيلان »

وإلى هذه الكنية أشار « المعرى » فى تهكم بارع :

« سل أم غيلان الصموت عن ابنها
وبنات أوبر ، من أبوها أوبر ؟ »

— ٢ —

والطلح — فيما يعلم القارئ — شجر عظام من شجر العضاه ، الذى لا يثمر غير الشوك ، ترعاه الإبل إذا أعوزها الزاد ، فلا تكاد تستسيغه إلا مضطرة ، وقلما تسلم من غصصه وعلله . فلا عجب إذا اتخذوه رمزاً للشر ، وصاغوا من « السَّمُرة » لفظ « السمرمرة » : لقب الغول ، وجعلوا من شجرها مزاراً لتلك الشيطانة الحبشية الغضبى التى تقدم السمرات الثلاث — كما تمثلها الأسطورة — نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تحرّق الأرّم (تحك أنيابها حتى يسمع لها صريف) من شدة الغيظ .

فلا عجب إذا استخرج العرب — من هذا الشجر وثمره — ألفاظاً تدل على طائفة من معانى الشر ، فاشتقوا الطلاح (الفساد) من الطلح ، كما اشتقوا من ثمره الشائك ألفاظاً منطوية على طائفة من معانى السحر والإفك والكذب والأذية(١) .

فإذا سأل القارىء : «ولماذا خصوا هذه السمرة بهذا اللقب؟ وكيف أطلقوا عليها : « ذات أنواط » ؟ همس فى أذنه بعض مؤرخى العرب ، ومنهم « ابن الأثير » .

« إنها سميت كذلك لأن المشركين كانوا ينوطون بها سلاحهم (يعلقونه) ويعكفون حولها » .

وربما همس فى أذنه بعض الباحثين : « إنهم أطلقوا عليها ذلك اللقب ، لما تميزت به مما كان يتدلى من أغصانها الكبيرة من أنواط » .

والنوط — كما يعلم القارىء — هو القفة الصغيرة التى تحمل ثمار هذه الشجرة ، السامقة العقيم .

— ٣ —

وهكذا أسلمتنى هذه الأسطر القلائل إلى طائفة من التأملات أزاحت ما كان مستولياً على نفسى من السآمة والملل ، ونفضت عنى غبار الفتور والكسل ، وأعادت إلى النشاط ، فأقبلت على الكتاب أقرؤه من أول سطوره ، متنقلا بين فصوله الشائقة ، من صفحة إلى صفحة ، حتى انتهيت إلى خاتمته ، وأنا شيق إلى الاستزادة من حديث هذا الباحث الموفق المثمر الذى لا يمل البحث ، ولا يمل قارئه من متابعته فى عوالمه الفسيحة .

ورأيت المؤلف يتنقل بين مجاهل التواريخ التى طويت على مر الأزمان ، وعفى عليها تطاول الأمد ذيول النسيان ، فلم يبق

---

(١) يقال أعضه الرجل : جاء بالإفك والعاضه : الساحر وحية عاضه : تقتل من ساعتها إذا نهشت .

الدهر — من آياتها وحقائقها وأحداثها — إلا ظنونًا وأحداسًا وأخيلة ، لا تـكاد تثبت على الاختبار والبحث . ثم لا يزال مؤلفنا يتنقل فى فصوله الشائقة حتى يبلغ المدى من رحلته الفكرية ، وينتهى إلى عصرنا الحافل بألوان من الحقائق ، تكاد - لغرابتها - تفوق عجائب الخيال .

— ٤ —

وهكذا صحبت المؤلف وهو يتابع سير الإنسان ، منذ أقدم العصور ، حين كان يقيم مع قبيلته بين الأشجار ، وفى الكهوف وقد اكتسى جسمه بشعر كث يصارع الوحوش ويطاردها فى الأدغال ، ويقتات بالبذور ، ويعيش على لحوم فريسته التى عزقها بأظافره ويقطعها بأسنانه ، كما يفعل أضرابه من الوحوش .

ثم لا يزال المؤلف يساير الإنسان القديم مرتقيًا به ، فى أسلوب تصورى جذاب حتى يصل إلى العاصر الحاضر ، فى قرابة مائتين من الصفحات الحافلة بالملاحظات والتوجيهات ، بعد أن ضمن التوفيق فيما قبسه وتخيره من الكتب : عربية وأجنبية ، وفيما عرض له من تحليل ومناقشة ، وتأليف بين أشتاتها ، وتمحيص لرواياتها ، منذ صحب الإنسان الأول إلى أن أبلغ العصر الحاضر : عصر الآلات والمناجم والبخار والكهرباء والطائرات والسيمى والراديو والتلفزيون . ولم ينسه ذلك المعرض الحاشد — الذى افتن فى إقامته وتنسيقه — ما وراء تلك الصور المادية من السجايا والأخلاق الإنسانية ونشأة العادات ، وأثر الأديان والشرائع والقوانين فى الأفراد والجماعات ، وأى حافز دفع الإنسان إلى منازعة الوحوش فى الغابات ، وأى قوة أمكنته من قهرها والتغلب عليها ، بفضل ما منحه الله من عقل وتفكير . وكيف استقبل الإنسان فجر المدنية وهو — فيما يقول المؤلف — : « يتقدم ببطء من جمع الأطعمة إلى الصيد ، ومن الجماعة المشتتة إلى القبيلة ومن ثم يتطور فيشكل نظاما اجتماعيا ، ويوزع الوظائف بين الأفراد . كما لم ينسه أن يعرض لنهضات « مصر » و « بابل » و « فلسطين » و « الهند » و « الصين » و « اليونان » و « الفرس » و « رومة » .

— ٥ —

وقد ألم المؤلف — على ذلك — إلمامة بارعة بأنواع الزواج فى الجاهلية ، وقبس طائفة من الأمثلة تبين اختلاف نظامها وتباين عاداتها ولم يفته أن ينبه إلى ما ألفته بعض قبائل العرب فى زمن الجاهلية « من نسبة أولادهم إلى أمهاتهم قبل أن ينهاهم الإسلام ، وكان نهيه صريحًا فى قوله تعالى : « ادعوهم لآبائهم ، هو أقسط عند الله » .

وهى — فيما رأى ويرى غيرى من الباحثين — عادة جرى عليها الروم فى قديم الزمان ، ولعلهم كانوا أسبق إليها من العرب .

وقد أشار المعرى فى لزومياته إلى هذه العادة ، إشارة ساخرة قاسية ، فقال :

« ولحب الصحيح آثرت الروم انتساب الفتى إلى أمهاته
جهلوا من أبوه ، إلا ظنونا وطلا الوحش لاحق بمهاته »

— ٦ —

أما بعد :

فقد كانت مفاجأة سعيدة ، حين تفضل مؤلف هذا الكتاب النفيس فمهد إلى بتقديمه ، ولم يكن عمر التعارف بيننا يزيد على دقائق معدودة ، كانت كافية للتآلف . ولا غرو فى ذلك فإن الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

وهكذا أغنت اللحظات القليلة عن العشرة الطويلة ، وكانت — على قصرها — كافية لانسجام روحينا ، فخيل إلينا أننا تعارفنا منذ النشأة الأولى وكان من ثمرات هذا اللقاء العارض أن عرفت شغف المؤلف بالبحث والاطلاع ، وعنايته بتتبع آثار « ابن النديم » صاحب الفهرست والترجمة له فى مجلة المجمع العلمى العربى[١] . وتوفره على درس الدعوة الإسماعيلية فى رسائل إخوان الصفا[٢] وإقباله على كتابة فصول النقد وأعمال البنوك فى كتاب : النظام الاقتصادى فى فلسطين[٣] .

وكتابه : التطور الاجتماعى والاقتصادى لفلسطين العربية[٤]

وهكذا رأيت مؤلفنا ينتقل فى بحوثه النافعة ، من عالم الاقتصاد إلى عالم الأدب ، كما ينتقل فى حياته اليومية بين بنك الأمة العربية ومكتبته الضخمة الحافلة بألوان الثقافة والأدب ، فيذكرنا قول ابن المقفع :

(١) انظر المجلد الصادر سنة ١٩٣١
(٢) انظر مجلة الجامعة الأمريكية الصادرة ببيروت سنة ١٩٣٣
(٣) أصدرته الجامعة الأمريكية ١٩٣٩
(٤) صدر عام ١٩٤٧ فى القدس

« أمران يحتاج إليهما من يحتاج إلى الحياة : المال والأدب » ولا ريب أن الأمم - كالأفراد - لا غنى لها عن بناء نهضتها على أساس متين ، يرتفع بناؤه على هاتين الدعامتين .

— ٧ —

وكان من ثمرات هذا اللقاء السعيد أن أتاح لى الظفر بقراءة هذه الخلاصة الممتعة التى تأتى مؤلفها فى عرض تاريخ الحضارة الإنسانية عرضاً تصويرياً أخاذاً ، يخيل إلى قارئه أنه يشهد شريطاً من أبدع ما أخرجته السيمى فى العصر الحديث .

وقد علم القارئ مما أسلفت أننى لم أكد أقلب صفحات كتابه حتى رأيت ما تفتحت نفسى له ، وشجعنى على البدء بقراءته من أوله ، فلم تنته الجلسة حتى أتممته ، وأنا شديد الأسف على انتهائه ، وبودى لو امتد هذا السفر التاريخى الحافل فى أضعاف صفحاته ، ليؤدى إلى رواد الثقافة أضعاف فائدته ، ويحقق لهم الكثير مما تتوق إليه نفوسهم الظامئة إلى أمثال هذه البحوث ، التى وفق أصحابها إلى جمع أشتات المعارف ، وأحسنوا عرضها ، بعد أن أحسنوا استيعابها وفهمها .

— ٨ —

وازدحمت الخواطر فى ذهنى — كما أسلفت — وتوائبت التعليقات ، كلما انتقلت من صفحة إلى صفحة ، وخشيت أن إعاود قراءة الكتاب مرة أخرى فيضطرنى ذلك إلى الوقوف عند كل فكرة طريفة — وما أكثر ما يحويه من طريف الأفكار — وربما اقتضانى ذلك أن أتوسع فى الشرح والتعليق فتصبح مقدمة الكتاب أضعاف حجمه .

ورأيت أن مؤلف الكتاب كان قادراً على الاضطلاع بمفرده بهذا العبء الثقافى التوجيهى كله ، لو أمكنته فسحة من وقته المزدحم بما ينوء به من شواغل الأعمال ، وما يضطلع به من تبعات ثقال ولكنها الظروف القاهرة ، أعجلت المؤلف كما أعجلتنى ولعله قصد إلى الإيجاز قصداً ليحقق لقارئه فى صفحات قليلة ما تستوعبه المطولات المستفيدة ، وهو غرض نبيل ، والحاجة إلى المختصرات مطلب جليل ، لا يقل عن الحاجة إلى المطولات . وربما زاد عليها فى بدء عصور النهضات ، لترغيب الزاهدين فى القراءة ، وتمهيد ما توعر من طرائقها أمامهم .

وحسناً صنع المؤلف حين عنى بتوجيه قارئه إلى أمهات الكتب ليحبب إليه البحث ، بعد أن عنى بتوجيهه وإرشاده وفتح آفاق جديدة له .

وما أجدر المؤلفين بالأخذ بهذا النهج ، فهو من الأهداف النافعة ، يتوخاها طالبو الإصلاح فى مستهل النهضات ، تستقبلها الأمم التى طال عهدها بالنوم ، وآن لها أن تنفض عنها غبار الخمول

— ٩ —

أكرر القول : إننى وجدت فى كل صفحة من صفحات الكتاب باباً للمناقشة ومجالا للأخذ والرد والتعليق ، ومثاراً للخلاف حيناً ، والموافقة أحياناً .

وهذه أول مزايا الكتاب المثمر الناجح . وحسبى دليلا على نفاسة ما أقرأ ، أن يثير فى نفسى ألواناً من البحث والتمحيص ، ويحفزنى إلى ارتياد مختلف الميادين الفكرية التى صرفتنى عنها عوادى الزمن وشواغله .

وقد كان من حسن حظ المؤلف والقارئ أن يتضافر على كاتب المقدمة ضيق الوقت ، وزحمة العمل ، ووعكة الصحة ، وقلة الصفحات المخصصة للتصدير ، فتعجله كل هذه الأسباب مجتمعة عن التفصيل والإسهاب اللذين تحاشاهما مؤلف الكتاب .

وكان من حسنات عصر السرعة الذى نعيش فيه ، وما أوجبته المطبعة التى لا تعرف التريث والبطء ، ولا تبالى الوعكة ولا المرض ولا تحفل الشواغل وزحمة العمل ، أن تمتد المقدمة فى حيز من الصفحات ثابت ممدود ، وزمن من الساعات مؤقت محدود . ولولا ذلك لامتد بى نفس القول كما امتد بـ « المعرى » منذ ألف عام ، حين أجاب عن رسالة « ابن القارح » برسالة الغفران ، فى أضعاف حجمها ، وكما امتد نفس القول بالأمير « شكيب أرسلان » حين تصدى لتقديم كتاب « حاضر العالم الإسلامى » ، فزادت صفحات مقدمته على مقدمة « ابن خلدون » ، وتجاوزت شروحه وتعليقاته أضعاف حجم الرسالة التى عهد إليه مترجمها أن يقدمها .

ولا عجب فى ذلك ، فإن نفس القول إذا مددته امتد ، وتداعى المعانى لا يعرف الوقوف عند حد :

« والفكر حبل متى يمسك على طرف
منــه ، ينط بالثريا ذلك الطرف
والعقل كالبحر ، ما غيضت غواربه
شيئاً ، ومنه بنو الأيام تغترف »

كامل كيلانى

الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

في مؤتمر المجمع اللغوي

احتفل مجمع فؤاد الأول للغة العربية يوم الثلاثاء الماضي بافتتاح مؤتمره السنوي ، وهو الذي يحضره الأعضاء الأجانب ويستمر نحو شهرين ، واحتفى في هذا الحفل باستقبال عضوين جديدين هما الأستاذ محمد رضا الشبيبي والأستاذ خليل السكاكيني .

افتتح الاجتماع معالي الأستاذ أحمد لطفي السيد باشا رئيس المجمع بكلمة حيى فيها الأعضاء ورحب بالزميلين الجديدين ، ومما قاله أن المجمع يعالج مشكلات اللغة وقضاياها باعتباره هيئة علمية بحتة ليس من شأنها أن تنفذ قراراتها إلا ما يكون من عرضها على الهيئات العلمية ونشرها في المطبوعات والمجلات ، وأبدى معاليه السرور بما يلاحظ في المجتمع العربي من الدلائل على الرغبة في تقبل أعمال المجمع بقبول حسن .

ثم ألقى الأستاذ شوقي أمين ، بالنيابة عن كاتم سر المجمع ، كلمة أجمل فيها ما قام به المجمع من أعمال في العام الماضي وبرنامج العمل في هذا المؤتمر .

وبعد ذلك وقف الأستاذ عباس محمود العقاد فألقى كلمته في استقبال الأستاذ الشبيبي فقال : إنه يدخل هذا المجمع من أكثر من باب واحد ، لأنه شاعر ناقد باحث لغوي ناثر للعلم واللغة .

وعند ما تكلم عن شعره اكتفى بالعرض المجمل ، فوصفه بفصاحة اللفظ ونصاعة المعنى وسلامة العبارة ، وأنه ينظم الشعر في أغراض شتى ولا يقصره على غرض واحد ، وألقى أمثلة من شعره بدأها بأبيات قال إنها من قصيدة نونية

وقال الأستاذ العقاد : إن الأستاذ الشبيبي أعانه البحث الطويل في الأدب واللغة على تمييز الكلام وتصحيح النقد ، وأورد ما قال إنه جاء في مقدمته لديوان الحبوبي تعقيباً على مذهب بقراط وابن خلدون في تكوين الطبائع والأخلاق ، وهو « والذي أراه أن لاستعداد الفطرة والغريزة تأثيراً أكبر من تأثير البيئة والوسط ، ورب سماء صافية الأديم وضاءة المنظر ، وتربة جافة الهواء معتدلة الحرارة تنبت رجلا سمج الطبع والخلق . ورب إقليم شديد الحرارة قليل النور بليل الهواء يخرج رجلا سليم الطبع رقيق الشعور » .

وفي انصرافنا من الحفل قال لي صاحبي الشاعر العراقي الأستاذ ابراهيم الوائلي : إن الشبيبي لم يكتب مقدمة لديوان الحبوبي ، وإنما الذي كتب مقدمة هذا الديوان هو الشيخ عبد العزيز الجواهري ، ويظهر أن النص الذي أتى به العقاد مأخوذ من « العراقيات » ، وهي مجموعة تضم عشرة من شعراء العراق ، فيها ترجمة للحبوبي بقلم الشبيبي .

ثم قام الأستاذ الشبيبي فألقى كلمة طيبة في تحية المجمع وشكر الأستاذ العقاد . ومما قاله أن للشعوب العربية في هذه المرحلة من مراحل يقظتها مطالب ، ومن أحوج ما تحتاج إليه ائتلاف في الأرواح وتقارب في المشارب والأذواق ، وتجاوب بين العواطف والأفكار ، وهذا مطلب جليل لا يتيسر لنا إلا إذا جمعتنا من لغة العرب جامعة أدبية كبرى ، واعتصمنا من هذه الفصحى بحصن حصين ، وجدير بهذا الأدب العربي الحديث أن يرى عاملا فعالا من عوامل الإنشاء والبناء ، وخليق به أن يتغلب على غيره من العوامل المفرقة الهدامة .

وقد جرت تقاليد المجمع على أن يتحدث العضو الجديد في حفلة الاستقبال عن سلفه حديثاً مسهباً ، ولكن الأستاذ الشبيبي اكتفى بالإشارة إلى مكانة سلفه الأستاذ الكرملي وفضله ، واعداً بأن يعود إلى تفصيل الكلام عنه في فرصة أخرى .

ثم كان من قسمة الأستاذ خليل السكاكيني أن يقدمه الدكتور منصور فهمي باشا ، إذ كشف القناع عن ناحية قال إن الأستاذ السكاكيني لا يحب إثارتها ، ولذلك حذره من الإشارة إلى أي ناحية من جهوده الأدبية الضاربة في ماض بعيد ، ربما يستنتج منها مدى عمره المبارك المديد؛ وعلى رغم هذا التحذير مضى الدكتور منصور باشا في هذه الدعابة فروى أن مدرساً كهلا استقبل الأستاذ السكاكيني في حيفا من عدة سنين بخطبة قال فيها إنه سمع عاطر الثناء على فضله وأدبه من المرحومة جماته ، وكانت صغرى تلميذات الأستاذ في دار المعلمات ... ثم قال إن الأستاذ سكاكيني يخفى

عمره لأنه يدين بفلسفة القوة فى كل أمر من الأمور؛ فهو يناوئ الشيخوخة ويكره أن ينتمى إليها أو يذكربها ؛ فإذا نظر من خلال فلسفته إلى اللغة فإنه لا يروقه منها إلا ما اتسم بالقوة والسلامة . وأفاض بعد ذلك فى بيان جهوده فى الإصلاح العلمى ومكانته فى عالم الأدب واللغة .

وكان الدكتور منصور فهمى باشا قد قال فى مستهل كلمته إن حلول السكاكينى ، وهو من أهل القدس ، محل الشيخ مصطفى عبد الرازق فيه ما يبشر بأن بركة فلسطين ستلتق بالآثار المباركة لسلفه .. ولكنه لم يلبث بعد هذا الكلام أن رق فى مداعبة معلم الغابرين والحاضرين ، ومربى الحموات الفضليات ...

وألقى بعد ذلك الأستاذ السكاكينى كلمة طلية أودعها كثيراً من النظرات الفلسفية الرائعة ، وقد قال فى أولها : إذا كنتم تقيسون العمر بالسنين فقد بلغت من الكبر عتيا ، وإذا كنتم تقيسونه بالأعمال فأنا لا أزال فى دور الطفولة ، وإذا كنتم تقيسونه بما يلقاه المرء من الهناء والسرور فإنى لم أولد

ثم أخذ فى الحديث عن الشيخ مصطفى عبد الرازق فحلل صفاته ومواهبه تحليلا وافيا وأفاض عليه بما هو أهله من الثناء والتمجيد ، ولكنه جنح

كشكول الأسبوع

* وجه خمسمائة من أقطاب الفكر فى فرنسا ، نداء إلى هيئة الأمم المتحدة بأن تكافح الحرب وتعتبرها عملا غير مشروع فى حل المشاكل . وقد كتب الأستاذ توفيق الحكيم يقترح على رجال الأدب والفكر فى مصر ان يحذوا حذوهم .

* انتهى فى هذا الأسبوع مؤتمر اليونسكو الثالث ببيروت ، وقد تقرر أن يعقد المؤتمر الرابع سنة ١٩٤٩ فى باريس ، والخامس سنة ١٩٥٠ فى فلورنسا .

* وصل إلى القاهرة يوم الأحد الماضى أعضاء المجلس التنفيذى لليونسكو ، وقد دعاهم معالى وزير المعارف فى المساء إلى حفلة شاى فى (شبرد) ودعا إليها الدكتور طه حسين بك .

* كتب الأستاذ كامل منصور بجريدة البلاغ مقالا قال فيه إن أساتذة كلية الآداب تنكروا للدكتور طه حسين بك وهم صنائعه . وقد استدعاه عميد الكلية وأمر بالتحقيق معه باعتباره خريج الكلية ومنتدباً إلى قسم الدراسات العليا بها . وقد أجرى التحقيق معه فعلا ، ورفع الأمر إلى مدير الجامعة توطئة لمحاكمته .

* اختارت الإدارة الثقافية بالجامعة العربية ، بعض الأساتذة وتعاقدت معهم على العمل فى ترجمة أمهات الكتب العالمية ، وستبدأ بترجمة كتاب الآداب العربية للمستشرق بروكلمان .

* سجلت الإدارة الثقافية الأناشيد التى اختارتها مما قدم إليها فى مسابقتها ، وأخرجت عدة نسخ مسجلة لكل نشيد منها ، لكى توزع على دور الإذاعة العربية كلها . وعلى ذلك سيذاع من هذه الأناشيد ما ليس لصاحبه « واسطة » فى الإذاعة المصرية — من بقية الإذاعات العربية . . .

فى آخر الأمر إلى عبارات مألوفة فى التقريظ والمبالغة ؛ إذ قال : لو لم يسبقه الخليل لكان أول من وضع العروض ، ولولم يسبقه أرسطو لكان أول من وضع المنطق ، ولولم يسبقه ابن خلدون لكان أول من وضع علم الاجتماع . واستمر فى هذه الفروض ، ماراً بعديد من العلوم والمعارف وأوائل واضعيها ...

نظرات فى أدبنا المعاصر :

أذاعت محطة لندن العربية يوم الجمعة الماضى حديثاً للدكتور طه حسين بك عنوانه « نظرات فى أدبنا المعاصر » قال فيه إن الأدب العربى الحديث فى مصر مر بثلاث مراحل ، الأولى مرحلة الحرية التى دفع إليها الوعى الوطنى بعد الحرب العالمية الأولى ، وكان الأدب فى هذه المرحلة من حيث علاقته بالشعب ذا صبغتين اتصالية وانفصالية ، فكان الأدباء متصلين بالشعب حين يعبرون عن مطالبه وحقوقه السياسية ، وكانوا منفصلين عنه حينما كانت تتعلق كتاباتهم ببعض النواحى الدينية والاجتماعية ، ولكن الشعب لم يلبث بعد ذلك أن تطورت أفكاره وأصبح يستسيغ ما كان ينكره . والمرحلة الثانية تبدأ من حوالى سنة ١٩٣٠ حين مال السياسيون إلى أخذ الأمور بالرفق والاعتماد فى

حل المشاكل على مضى الوقت ، فى ذلك الحين بدأ الأدباء أيضاً يتراجعون فى ميدان الحرية الذى كانوا فيه يركضون ، ويحاسبون أنفسهم فيما يكتبون قبل أن تحاسبهم السلطات ، فاعترى الجمود الأدب ، ولا يزال رانياً عليه . والمرحلة الثالثة جاءت بعد الحرب العالمية الثانية ، وفيها امتداد لجمود المرحلة الثانية ولكنها تتميز بنزوع الأدباء إلى الكتابة فى الحال الاجتماعية من حيث تصوير مظاهر الشقاء ومعالجة الأعداء الثلاثة ، الجهل والفقر والمرض ؛ وهو تصوير يبدو قاتماً لسوء الحال التى يصورها ، ويغلب التشاؤم على الأدب لذلك . وهناك مع هذا أدباء هربوا من ذلك الجمود ومن هـذا الأدب الاجتماعى البائس ، إلى التاريخ : فهيكل يكتب فى حياة محمد وحياة الخلفاء ، والعقاد يؤلف العبقريات ، ويتجاوزها إلى التآليف فى الإله ، وطه حسين (المتكلم لا يزال الدكتور طه) يكتب على هامش السيرة ويتجاوز ذلك إلى عثمان وأحلام شهرزاد . وذلك لأن الأديب يشعر بالحاجة إلى الراحة ، وقد وجد أدباؤنا راحتهم فى التاريخ .

بقية الهاربين :

هناك من كبار أدبائنا — غير من ذكرهم الدكتور طه — من هربوا من الأدب كله إلى الرد على رسائل القراء الشاكين من مصلحة التنظيم ، وحل معضلات الحب التى تعرض لبعض الشبان والفتيات . .

الشخصية والجريمة :

فى يوم الجمعة الماضى انعقدت مناظرة بقاعة يورت التذكارية موضوعها « الشخصية والجريمة » اشترك فيها الدكتور أمير بقطر والأستاذ سلامه موسى والسيدة سمية فهمى والأستاذ مظهر سعيد . وقد دارت المناقشة بينهم فى الإجابة عن هذه الأسئلة : ما ذا يقصد بالشخصية وبالجريمة ؟ وهل الشخصية موروثة أو مكتسبة ؟ وهل يورث الإجرام أو يكتسب ؟ وإلى أى حد ينبغى أن يعفى المجرم من المسؤولية ؟

ومجمل ما اتفقوا عليه أن الشخصية هى مجموعة الصفات الجسمية والوجدانية والأخلاقية وتفاعلها ، وأن الشخصية الحسنة هى التى يلائم صاحبها بين تصرفاته وبين المجتمع ويتحمل تبعة أعماله ، والسيئة هى غير الملائمة المتخففة من المسؤولية ؛ وأن كلا من الشخصية والإجرام يتكون من الوراثة ومن البيئة ، وقد اختلف المتناظرون فى أيهما — الوراثة والبيئة — أكثر أثراً وإن كانوا متفقين على وجودهما فى الشخصية والجريمة .

وقد اختلفوا فى تعريف الجريمة ، فبدأت السيدة سمية بأن الجريمة لا حقيقة لها ، لأن ما يعتبره بعض البلاد جريمة قد لا يعتبره كذلك بلد آخر ، وما يستنكر ارتكابه فى زمن قد يستساغ فى زمن آخر ، ومثلت لرأيها بفظائع الحرب ومعاونة العلماء على استحداث المدمرات التى آخرها القنبلة الذرية ، مما يوصف بالبطولة والوطنية ، وهو فى الواقع وحشية منكرة . ووافقها الأستاذ سلامة قائلا إن الجريمة تتبع العرف وإنها ليست إلا الأعمال التى لا يقرها المجتمع . وخالفهما الدكتور بقطر والأستاذ مظهر ذاهبين إلى أن الجريمة كل تصرف يخرج على النظام ويقع منه ضرر على الفرد والجماعة وهى تكون فى زمن معين ومكان محدد . واشتد الخلاف بينهم عندما عرضوا للسؤال الرابع وهو الخاص بإعفاء المجرم من المسؤولية ، فقالت السيدة سمية والأستاذ مظهر بوجوب النظر فى حال المجرم من حيث نوع شخصيته ، فلا يعاقب ذو الشخصية المريضة كالذى يسمى « السيكوباتى » وغيره مما كونته ظروف البيئة تكويناً سيئاً ، وخالفهما الدكتور بقطر والأستاذ سلامة ، فقال الثانى إن المجرم من أى نوع متأثر فى إجرامه بالوراثة والبيئة على اختلاف تقدير حظه من كل منهما ، فكل مجرم لا يد له فيما يرتكب إذا أخذنا بقاعدة الإعفاء من الإجرام الاضطرارى . وقال الدكتور بقطر إنه لاحظ فى أثناء وجوده أخيراً بأمريكا ، أن الجرائم هناك قد كثرت بفضل علماء النفس الذين يعللون دوافع الإجرام تعليلا يعفى المجرمين من العقاب أو يخففه عنهم ، ويفسح القضاة لهذه التحليلات النفسية ، ويصدرون أحكامهم بناء عليها .

تعقيب :

لقد تبينت فى خلال هذه المناظرة بالمشاهدة والمثل العملى — أن العامية لا تصلح أبداً لغة للأفكار العلمية ، وذلك أن المتناظرين وخاصة السيدة سمية فهمى والأستاذ سلامة موسى ، كانوا يلجئون إلى التعبير العامى فلا يسعفهم فى إبراز ما يجول بخواطرهم ، فيستنجدون بالتعبير الفصيح ، فمن واتاه بلغ به ، ومن استعصى عليه اضطرب وملكه العى ، وقد وقعت السيدة من ذلك فى حرج شديد ، وإن بدا — على رغم تعثر لسانها — تمكنها من دقائق الموضوع ، وقد كانت تشكو من ضيق الوقت وعدم اتساعه

لمعالجة موضوع المناظرة ، والواقع أن الوقت كان يضيع بالتلجلج وتكرار العبارات العامية من غير طائل ، ولو أنهم أعدوا المناظرة ودونوا أفكارهم فى « تجربة » قبل الظهور على المسرح ، لأتوا بما يرجى منهم فى مثل هذه المناظرة ، فهم معروفون بالدراسة والبحث وسعة الاطلاع ، ولكن الارتجال والاستهانة باللغة الصالحة للتعبير العلمى الدقيق ، جعلاهم يقضون نحو ساعتين فيما لا يستحق هذا الزمن من أمثالهم ، وقد شعر الحاضرون بذلك ، وكانوا جمهوراً كبيراً ، أتوا ليستمعوا إلى هؤلاء الأعلام ، ولم يضنوا على عقولهم بثمن الدخول الذى تتقاضاه الجامعة الأمريكية ولعلها الوحيدة فى مصر التى تفرض أجراً على سماع المحاضرات والمناظرات العامة.

عباس خضر

رسالة النقد

زوجـــات

ترجمة الأستاذ أحمد الصاوى محمد

كتاب رائع ، ذلك الكتاب الذى يقدمه الأستاذ أحمد الصاوى محمد إلى قراء العربية . وبهذا الكتاب يثب الصاوى وثبة أخرى فى الطريق الذى بدأه منذ سنين ، حين راح ينقل شتى الألوان من ثقافة الغرب إلى الشرق ، ويمزج بين هذه وتلك مزجاً موفقاً يقرب الشقة بين ذوق وذوق ؛ وبين فهم وفهم ، وبين شعور وشعور .

و « زوجات » يصدر معه كتابان آخران للصاوى هما « فوشيه » و « الغيرة من الماضى » ... ثلاثة كتب ومن قبلها بضعة وعشرون كتاباً ، تكون فى مجموعها ثلاث مدارس كما يحلو للأستاذ الصديق أن يصنف كتبه فينسب كلا منها إلى مدرسة خاصة ؛ فهناك مدرسة العبقرية ، ومدرسة الحرب والسياسة ، ومدرسة المجتمع ... وإلى هذه المدرسة الأخيرة ينتسب كتاب اليوم « زوجات » .

يقدم إليك الصاوى فى هذا الكتاب ثمانية ألوان من الطبيعة الإنسانية ، فى كل لون منها امرأة .. هى زوجة . وعلى اختلاف الميول وتباين الأهواء وافتراق النزعات ، تختلف الصور وتتباين الملامح وتفترق السمات ، ويتمثل لناظريك معرض من معارض الصراع القوى المنيف ؛ صراع العواطف والأفكار .. فيه لوحات نفسية ، وفيه نماذج بشرية ، وفيه ما فيه من حيرة العقل ولوعة القلب ووقدة العاطفة واشتمال الوجدان!

وأقف بك وقفة متأنية ، متأملة ، عند الزوجة الأولى صاحبة « الكراسة الحمراء » ، تلك التى قضت العمر محلقة بالفكر على أجنحة الخيال ، تحلم حلماً طويلا لا نهاية له .. حلم أرض الميعاد ! هى قصة من روائع الأدب الفرنسى المعاصر لخصها الصاوى من قبل ثم عاد فنقلها إلى العربية نقلا أميناً ، كاملا ، احتفظ فيه بروح الفن فى لغته الأصيلة؛ أما صاحبها فهو أندريه موروا عضو الأكاديمى فرانسيز وأما اسمها الحقيقى فهو « أرض الميعاد » ، ولكن قلم الصاوى شاء أن يخلع عليها اسماً آخر هو « الكراسة الحمراء » .. وقبل أن ألخص لك هذه القصة التى تشغل من الكتاب ما يقرب من ثلثيه ، قبل هذا أود أن أشير إلى قصة أخرى ظهرت فى أفق الأدب الفرنسى ، هى قصة « الباب الضيق » لأندريه جيد صاحب جائزة نوبل للأدب عن عام ١٩٤٨ . . فى قصتى جيد وموروا ناحية جديرة باهتمام القارىء المتمكن والناقد الذواق ؛ ناحية يلتقى فيها الكاتبان ويفترقان بعدها فى كل شىء !

أندريه موروا فى « أرض الميعاد » فنان ، وأندريه جيد فى « الباب الضيق » إنسان .. وكلاهما يبلغ القمة فى ميدانه : هذا فى إنسانيته وذاك فى فنه . وكلاهما يمضى بعد ذلك فى طريق ؛ تنزع القصة الأولى إلى الناحية الموضوعية أكثر مما تنزع إلى العرض والتحليل ، على حين تقتصر القصة الثانية على الناحية التحليلية الخالصة ، هناك حيث تطغى الألوان النفسية والظلال الإنسانية على كل ما عداها من ألوان وظلال ! وبعد ذلك أيضاً يمضى كل منهما فى طريق ... فبينما نجد موروا يصهر العواطف الإنسانية فى بوتقة الشهوة الجسدية العارمة ، تلقى جيد يصهرها فى بوتقة اللذة الروحية الهائمة ؛ هناك شىء من الإباحية السافرة المتجردة ، وهنا شىء من الصوفية القلقة الغامضة . . . وفى كلتا القصتين صراع ملح عاصف عنيف ، هو فى « الباب الضيق » صراع بين روح وجسد ، وهو فى « أرض الميعاد » صراع بين روح وأجساد!

في نطاق هذا الصراع الروحي الشاذ تتفق القصتان ويلتقي الكاتبان ، ولا أقول إنه اتفاق كامل أو التقاء كامل ، ولكنه اتفاق والتقاء على كل حال ، يتمثلان في شخصيتين وضعهما جيد وموروا تحت مجهر التحليل النفسي وهما « إليسا » بطلة « الباب الضيق » و « كلير » بطلة « أرض الميعاد » . كلتاهما خلقت تنشد الحب الذي لا تدنسه شهوة ، ولا يشوه من قداسته لذة ، ولا يعبث بطهره إثم ، وهذا هو الحب المثالي الذي تضيق به دنيا البشر ، وكلتاهما لقيت في سبيل هذا الحب آلاماً مبرحة وعذاباً لا يطاق ، وتلك حال من يعيشون على الأرض وقلوبهم متعلقة بالسماء ، لا شيء غير الصراع .. صراع القلب والعقل ، صراع الفكر والعاطفة ، صراع الجسد والروح ! ... أما موروا فقد شاء لبطلته أن تخضع لمنطق الحياة والناس على ما فيه من قسوة ومرارة ، ولكنه خضوع المجبر المغلوب على أمره حين تتألب عليه القوى فيلقي السلاح ، وتظل المعركة إلى الأبد محتدمة في نفسه وشعوره ؛ وهذا هو منطق الفنان ! ... أما جيد فقد آثر لبطلته أن تقاوم حتى النهاية ، وأن تحمل من الشقاء في سبيل مثلها العليا فوق ما يحمل طوق الأحياء .. لقد استحال حبها الإنساني على مر الزمن حباً إلهياً فيه من شفافية التصوف ما يقرب بينها وبين الله . . . وفي فصل اليوميات من « الباب الضيق » تهتف « إليسا » من الأعماق مشيرة إلى « جيروم » : « يا إلهي ، تمنيت لو نقبل كلانا عليك ، تدفع أحدنا قوة الآخر! لو نمشي كل طريق الحياة حاجين يقول أولهما للثاني : استند إلى ذراعي يا أخي إذا تعبت ، فيجيبه : حسبي أن أراك إلى جانبي ! ولكن لا ؛ إن الطريق التي توصينا بها يا إلهي طريق ضيقة ، ضيقة حتى ما يستطيع سلوكها قرينان ! ... يا إلهي ، لم اخترت لنفسي مرارة الحرمان ! أتراني أطلب غير الحب فتنة أعذب وأقوى ! آه لو نملك دفع نفسينا معاً بقوة الحب إلى ما وراء الحب نفسه ! » وهذا هو منطق جيد .. منطق الإنسان !

وأعود بك مرة أخرى إلى قصة أندريه موروا . . . نشأت كلير منذ صباها المبكر تتطلع إلى الحب بعينين حالمتين وقلب ظمآن ، ولكن مربيتها الإنجليزية ذات الطبع البارد والوجدان الفاتر كانت تحذرها دائماً من أخطار الحب ، ونزوات العاطفة ، وغواية الرجال .. كانت كلما حملتها أحلام اليقظة على جناح الأمل إلى أرض الميعاد ، ردها صوت المربية العجوز إلى أرض البشر : إحذري يا فتاة إن الرجال ذئاب ، تقودهم إلى مهاوي الرذيلة شهوات وغرائز ! وشبت كلير عن الطوق ولا يزال في نفسها وسمعها من دروس المربية العجوز رنين وأصداء ! ... أما أبواها فقد تلقت عنهما من الدروس ما طبع نظرتها إلى الحياة بطابع القلق والحيرة والترجح بين قسوة الواقع ومثالية الخيال ؛ كان أبوها ضابطاً كبيراً عوده جنوده أن يأمر فيطاع ، وعودته الطاعة العمياء أن يرى فيمن حوله آلات يدفعها فتندفع !

وهكذا عاشت كلير .. لا يسمح لها أن تبدي رأياً ، ولا يؤذن لها أن تملي على أمر ، ولا يتاح لها أن تعترض على وضع من الأوضاع . . . أما أمها فكانت امرأة شاذة غريبة الأطوار ، لا تعترف بهذه العاطفة المقدسة التي يسميها الناس حباً ، وكثيراً ما كانت تضم صوتها إلى صوت المربية العجوز في تحذير ابنتها من لعنة الحب ، وخبث الطوية عند الرجال ! .. ومما ترك أثراً عميقاً في نفس كلير أنها كانت كلما قادها الخيال إلى حلم كل عذراء ، إلى ليلة الزفاف ، ارتفع صوت مربيتها ليقول لها في دهشة مقرونة بالعجب والاستنكار : « ليلة الزفاف ؟ ألا تعلمين ما هية ليلة الزفاف ؟ ! ... تصوري مذلة أن تتجرد المرأة أمام رجل ، وأن تظل عارية تماماً رهن مشيئته ، وطوع إرادته ، وتحت رحمته ! ... آه من شناعة هذا كله ! »

في هذا الجو الملبد بالقسوة ، المفعم بالرهبة ، الحافل بالشذوذ ، عاشت كلير ... ومن هذا الجو الخانق خرجت إلى الحياة لتواجه الحقائق بعقلية الأب والأم « ومس برنكر » المربية العجوز ، عدوة الرجال ولكنها كانت أبداً تحلم بأرض الميعاد ، أرض العبقرية ، أرض النبوغ . أرض الوحي والإلهام .. كانت تتمنى أن تصبح يوماً كاتبة عظيمة أو شاعرة عظيمة ، وحين لم يتحقق لها شيء من هذا كله ، راحت تحلم بأن تكون زوجة لكاتب عظيم أو شاعر عظيم ، وما أجلها من أماني عذاب وهي تتخيل نفسها إلى جانبه ، تعطف عليه فتوحي إليه ، وتلهبه فتلهمه ، ويذوقان معاً أول قطرة من قطرات الخمرة المسكرة .. خمرة الفن والمجد والخلود !

ولكن الأيام تمضي بها في طريق كل معالمه صخور وأشواك .. لقد دفعت بها إلى أحضان رجل لا يفهم لغة الفن ، ولا موسيقى العواطف ، ولا نبضات القلوب ؛ وهكذا قدر لكلير أن تعيش في رحاب زوج لا يكاد يرى المرأة إلا من وراء منظار الشهوة المحترقة ، الشهوة التي تنشد الجسد ولا تعبأ بنداء الروح ، الشهوة التي لا تصغي لصوت غير صوت الغريزة ، صوت الحيوانية المتأججة في الأعماق ! . كان « ألبير لاراك » ملكاً من ملوك

المال ، وفى بيته عاشت كاير كما تعيش الملكات ، ولكن شيئاً واحداً كان يحيل النور فى عينيها الساحرتين ظلاماً ، ويلهب روحها بسياط العذاب ، ويفجر الألم فى أعماقها تفجيراً . . . هو تلك العلاقة الجنسية « الشائنة » التى يفرضها عليها منطق الحياة والأحياء ! . . . هذه الروحانية الشفافة التى كانت تحلم بها فى أرض الميعاد ، وهذا الهيام العلوى الذى كان يربطها بالسماء ، وهذا الشعور المثالى الطليق المحلق فى آفاق الخيال ، هذا كله قد تحطم على أرض البشر . . . ويا ويح الخيال حين يرتطم بقسوة الحقيقة ومرارة الواقع ! حتى هذا الطفل الذى أنجبته لم يثر فى حنايا الضلوع عاطفة ، ولم يشعرها يوماً بحنان الأمومة ؛ لقد كان يذكرها دائماً بأنه أتى إلى الدنيا عن هذا الطريق الذى كانت تبغضه ، وتنفر منه ، وترمض جوانحها بالعذاب .. طريق العلاقة الجنسية « الشائنة » ، علاقة « الشقاء المقدس » لا الرباط المقدس! هكذا كانت تشعر كاير، وتنظر إلى منطق الحياة والناس!

أرض الميعاد ، ولا شيء غير أرض الميعاد .. أين من يقودها إلى هذه الأرض التى أقامت لها فى معرض الفكر صوراً فاتنات ، وحشدت لها الخيال يمدها بكل ما فى إبداعه من ألوان وظلال . لقد وجدته ، وجدته أخيراً وكأنهما كانا على ميعاد ، وجدته فى شخص شاعر عظيم فتنها برقته ، وغزا قلبها بعبقريته ، وسحرها بلطف حديثه ، وكان اسمه .. « كريستيان منتربيه » !

وفى هذا الظل الظليل من عبقرية الحب وحنان الحبيب ، نسيت كاير أن لها زوجاً وبيتاً وابناً .. كل خلوة مع الشاعر ، وكل رحلة مع الشاعر ، وله ألف نزهة تهيئها الأحلام تحت ضوء القمر ! . وتصل أنباء الزوجة إلى الزوج بعد أن أصبحت حديثاً تجهر به الشفاه ، وينتهى الأمر بينهما إلى الطلاق . ويعود هو إلى أشجانه ، وتعود هى إلى كريستيان منتربيه !

وفى رحاب الزوج الجديد عاشت كاير .. عاشت فى رحاب الرجل الذى ضحت فى سبيله بالزوج والابن وكل نعيم يهيئه للمترفين سلطان المال ! وكم عطفت عليه فأوحت إليه ، وكم ألهبته فألهمته ، ولكنها لم تذق معه تلك الخمرة المسكرة ... الخمرة التى عتقتها الأوهام فى دنان أرض الميعاد !. لقد كان الشاعر وا أسفاه بشراً ككل البشر !! وفى تلك الرسالة التى بعثت بها كاير إلى كريستيان بعد اثنى عشر عاماً من زواجهما ، يصور أندريه موروا بريشة الفنان المبدع ، كل ما كان يعتلج فى نفس بطلته من صراع رهيب بين الروح والجسد ، ظل إلى أن ودع الشاعر الحياة ، أقباساً من وهج اللوعة وفنوناً من عبقرية الألم ! .

ونقتطف هنا فقرات من هذه الرسالة الملتهبة :

« يا حبيبى الأعز ، إننى منذ مقامى هنا قد بدأت ثم مزقت عشر مرات رسالة كنت أريد وكان ينبغى لى أن أوجهها إليك منذ وقت طويل . إن ما لدى وعلى أن أقوله مؤلم لى ، وأخشى أن يسبب لك ألما . . . إننى لا أظن يا كريستيان أنك تستطيع أن تتصور إلى أى حد قد تألمت منذ اثنى عشر عاماً ، لقد كنت معجبة بك ، لقد كنت أحبك ، لقد كنت غير راغبة فى أن أكون لك . لا لك ولا لسواك . وما كان أسعدنى لو بقيت إلى جانبك صديقة ، أو لو استطعت خاصة أن أكون ملهمة ، ولكنك لم ترد ذلك ! وقد استسلمت خافضة جناح الذلة لأنى خشيت إذا أنا قاومتك أن أفقدك . . . لقد توقعت منك إذا أنا فرضت على نفسى تضحية إعطاء نفسى ، أن أجد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت مما لم يكشف لى الزواج عنه الحجاب ، غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، ولم ينكشف لى الحجاب عن الوادى العجيب ، ولم ألمح أرض الميعاد يا كريستيان !

إنى أحبك يا كريستيان ولا أحب سواك ، وإن من عناصر مأساتى أننى لك وسوف أكون مخلصة إخلاصاً لا يأتيه الشك ولا ينال منه شىء ولو بلغ بى اليأس والقنوط حد المنون .. إنك لو أردت فوضعت فى زواجنا من الشعر بقدرما تصنع فى غراميات الأبطال الذين تخلقهم ، فربما كنت أبلغ من الحرارة الدرجة العالية علواً خارقاً ، الدرجة اللازمة لتصهر تحفظى وتذيب جمودى . . . إن فى الحياة الزوجية — على النحو الذى يخيل إلى وكما أتصورها — شيئاً متكرراً ، شيئاً فاحشاً يثلج بدنى ! وإنى أفترض أننى مخطئة ، وأن المرأة الطبيعية العادية تجد شيئاً طبيعياً عادياً هذا « الهوى الجسدى الأعظم » كما هو عندكم أيها الرجال كل مساء ، من دون أن تتلف هذه الحركات والإشارات فى كل مرة بالشعر والقلق والجمال . لكن ما حيلتى وقد خلقت هكذا ؟ ! .. إن أعصابى تحترق شيئاً فشيئاً من تكرار هذه المأساة ، بل إن عقلى نفسه قد اضطرب ! وتتصاعد فى كيانى أبخرة الضغن والغيرة ، وأحياناً الحقد ، على تلك المخلوقات البريئة التى كل جريرتها عندى أنها تتذوق لذات تأباها على طبيعتى ... ! »

بعد هذه الزوجة الشقية التعسة ، تجد ست زوجات أخرى لخص الصاوى حياتهن من قصص ومسرحيات مطولة فى الأدب الفرنسى ، وسترى أن واحدة منهن قد لقيت من الشقاء والتعاسة



الخطــاب

للكاتب الانجليزي كرابي هوارد

هتف الرجل الصغير قائلا وقد بدت على محياه دلائل الارتباك وهو واقف بجوار الصندوق — أنى مسرور لرؤيتك !

فتوقف وتلفت إليه قائلا — مرحباً ... السيد سيمسن ، أليس كذلك ؟

كان سيمسن وزوجه حديثي العهد بالحى ، ولم أكن قابلتهما أنا وزوجي إلا مرة أو مرتين .

وأجابني سيمسن قائلا « أجل — هذا صحيح ! » وكان يبدو أنه مسرور لتعرفي عليه سريعاً . واستطرد قائلا « أنى لأتساءل : هل أستطيع أن تقرضنى ثلاثة أنصاف من البنسات؟»

فدفعت بيدي أبحث في جيبي ، وأنا أسمعه يقول « إن زوجتي قد سلمتني هذا الخطاب لألقيه في صندوق البريد ، ولكني لاحظت الآن فقط أن المظروف خال من طابع البريد » .

قلت مرفها — خل عنك ... فكثيراً مايحدث ذلك .

قال يجب أن يسافر هذا الخطاب الليلة — لابدأن يسافر ! ولا أظن أنى سأجد مكتباً للبريد مفتوحاً في هذا الوقت المتأخر من الليل . أتظن ذلك ؟

كانت الساعة قد أشرفت على الحادية عشرة ، فأمنت على أقواله.

واستطرد يقول — لذلك فكرت أن أحصل على طابع بريد من هذه الآلة ، عندما وجدت أنى لا أحمل نقوداً صغيرة

فقلت له بعد أن بحث في جيبي عبثاً — أنى شديد الأسف . أخشى ألا يكون معي مثل هذه النقود .

فصدرت عنه آهة تدل على الأسف ، قلت — لعل عابر سبيل يمر ... فقاطعني قائلا — لايوجد أحد ...

ونظرت إلى جهة من الطريق ونظرهو إلى الجهة الأخرى . ثم التفت إلى ناحيتي والتفت إلى ناحيته دون جدوى . وأخيراً هممت بالرحيل . ولكنه يبدو وحيداً مرتبكا وقد أمسك بيده مظروفا أزرق اللون فلم أقو في الواقع على تركه وهو في هذه الحال . فقلت له — دعني أخبرك ما الذي نفعله . من الأفضل أن ترافقني إلى داري . أنه على مقربة من هنا . وسأحاول أن أحصل لك على نقود صغيرة .

فقال سيمسن — أنه للطف منك حقاً !

وفي الدار ، استطعت بعد لأي أن أعثر على ثلاثة أنصاف من البنسات فأعطيتها إياه فأخذها مني شاكراً ، ثم جمل بدون في مذكرته — بطريقة رجال الأعمال — قيمة القرض ، ثم رحل. وراقبته وهو يذرع الطريق بخطواته ، ثم يتوقف ، ثم يعود إلىّ . وقال لي — إني آسف لإزعاجك مرة أخرى . الحقيقة إني لا زلت غريباً عن هذا الحي ، وهأنذا قد ضللت الطريق . لعلك ترشدني إلى مكتب البريد .

وحاولت إرشاده ، وقضيت بعض الوقت أشرح له موقع المكتب دون جدوى . وأخيراً وجدت نفسي في حيرة كحيرته عند ما صرح قائلا — أخشى أني لم أفهم ... فقاطعته قائلا — من الأفضل أن أرافقك . فعاد يردد قائلا — إنه للطف كبيرمنك!

وسرنا في طريقنا حتى وصلنا إلى مكتب البريد . ووضع سيمسن قطعة من النقود في ثقب الآلة ، فسقطت داخلها في صليل عال دون أن يظهر للطابع أي أثر . ونظر إلىّ سيمسن نظرة حائرة وكأنه يتساءل ما الذي يستطيع عمله . فشرحت له قائلا « أن الآلة فارغة من الطوابع . » فتأوه في أسف . «انصح

ما لقيت كلير ، وهي « زوجة الكاتب » . . . وأن أخرى قد لقيت من ذل الحياة وقسوة الأيام أضعاف ما لقيت بطلة أرض الميعاد ، وهي « زوجة الضابط » . . . وأن ثالثة قد واجهت العاصفة بصبر وثبات وزجاجة عقل حتى بلغت الشاطىء ، وهي « زوجة الوالي » .. أما مسرحية « أزواجها الثلاثة » فقد كانت بمثابة البسمة المشرقة وسط مآسي الدموع ! .. أما الزوجة السابعة والأخيرة فبطلة قصة مصرية كتبها الصاوي بقلمه تحت عنوان « زوجة الطبيب » ، ولعل هذه القصة هي الثغرة الوحيدة في هذا الكتاب ، الثغرة التي ينفذ منها الناقد إلى شخصية الصاوي الفنية ككاتب قصة .. لقد كان فيها مجال رحب للخيال الفنان ولكن الصاوي وجه كل عنايته إلى الإطار دون أن يحفل كثيراً بتلوين الصورة ، ومن هنا فإن الحركة النفسية قد اعتراها شيء من الجمود ، مبعثه تلك اللمسات السريعة العابرة في مواقف تحفل بعنف الصراع وفورة العاطفة !

أنور المعداوي

لنا أن طوابع أنصاف البنسات قد نفـد أيضاً ووقف سيمسن مضطرباً حائراً . وإذا بالمظروف يسقط منه ويقـع على الأرض فاستعاده وقد تلوث بالوحل . وصاح فى انفعال « انظر ، لقد تلوث بالوحل ! » ثم طرق على الآلة الفارغة فى حنق وهو يقول «حسن، ما الذى نستطيع عمله الآن ؟ » فاستنتجت من سؤاله هذا أنه قد أشركنى فى حيرته ، فسألته « أمن الضرورى أن يسافر هذا الخطاب الليلة ؟ » . فأجاب « نعم ! نعم إن زوجتى قد ألحت على أن ألقيه هذه الليلة . قالت ولـكن من الأفضل أن القيه الليلة إذا كنت تعرف ما أعنى » .

وكنت أعرف ما يعنيه من قوله هذا ، أو على الأقل أعرف زوجه مسز سيمسن . وتذكرت فجأة ما جعلنى أقول له «أتعرف. أن عندى دفتر طوابع للبريد فى دارى ! » .

فقال فى لهجة لا تخلو من التقريع « كان يجب أن تفـكر فى ذلك من قبل ! » .

فقلت «من الأفضل أن نسرع وإلا فاتنا موعد سفر الرسائل» وأسرعنا الخطى ، وكان هذا من حسن حظنا ، لأنه استغرق بحثنا مدة طويلة قبل أن نجد الدفتر وإذا به خال من طوابع البريد.

وجعل سيمسن يقلب الفكر وهو يقول « يا لخيبة الأمل ! » قلت « عجباً ! أكاد أقسم أن الدفتر كان ممتلئا بالطوابع ! » . فسأل فى حزن « ولـكن ... ماذا أفعل فى خطابى ؟ » . قلت « سنضطر أن نلقيه دون طابع » وكان اهتمامى بذلك الخطاب قد بدأ يقل تدريجيا .

قال وقد عاوده الأمل « أوه — أأستطيع أن أفعل ذلك؟! » قلت « ما الذى تستطيع عمله خلاف ذلك ؟ كل ما هناك أن من يتسلم الخطاب يدفع ضعف قيمة أرساله فى الصباح الباكر » . قال « إنى لا أود أن يحدث ذلك » .

قلت « ولا أنا . ومع ذلك . فليكن . أنها متاعبه وليست متاعبنا . أسرع الآن وإلا فاتنا آخر موعد لاستلام البريد . »

وأسرع سيمسن فى حماسة ، فصحت به « انتظر ... إن المكتب فى الناحية الأخرى من الطريق » .

فعاد وهو يلهث قائلا « آسف . أظن أنى ضللت الطريق مرة أخرى . » .

ولم أحاول أن أشرح له ثانية ، بل أمسكت بذراعه فى قوة وقدته إلى مكتب البريد فى اللحظة التى كاد يتم فيها استلام الرسائل — وكنت أعرف أنى بمرافقتى إياه سأوفر على نفسى بعض الوقت — ثم ألقى بخطابه بين الرسائل الأخرى ، وأخيراً عدت به إلى داره .

وقال وهو يودعنى : « أشكرك شكراً جزيلا على كل ما فعلته . أنى لا أعالك من التفكير ... ما الذى كنت أفعله بدونك ؟.. أن ذلك الخطاب .. أنه لا يحوى سوى دعوة للعشاء موجهة إلى ... يا إلهى ! » .

— ماذا ... ما الأمر ؟ .

— لاشىء ... لقد تذكرت أمراً ...

— ما هو ؟

ولـكنه لم يفه بكلمة ، بل اتسعت عيناه وهو يحـدق فىّ طويلا ؛ وأخيراً حيانى وأسرع إلى الداخل .

وعجبت وتساءلت وأنا أسير عائداً إلى دارى ما الذى تذكره ؟ ولـكن ... ما لبث أن زال عجبى فى الصباح الباكر عندما دفعت لساعى البريد ثلاثة بنسات قيمة استلامى مظروفاً أزرق اللون بغير طابع . . قد تلوث بالوحل ! !

محمد فهمى عبد الوهاب